الثلج الأسود

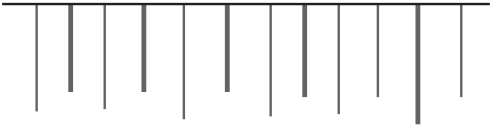

الكاتبة: إيمان خليل.

تدقيق لغوي: أحمد إبراهيم.

الإخراج الفني: ضياء فريد.

تصميم غلاف: حسن العربي.

رقم الإيداع: 2020/14309

الترقيم الدولي: 978-977-6689-47-3

9 شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين

بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل : 01126026691 01061813345

01009823984

الثلج الأسود

رواية

إيمان خليل

إهداء

إلى..

مجانين هذا العالم

أولئك الذين استخدموا عقولهم حد الجنون

وشعرت قلوبهم حد الثمالة

أولئك هم أوصال الخيال

بين نقص العالم وكماله

مفتتح

أُلْقي النرد الآن!

لا يهم الرقم الظاهر، هل يمكنك فصل النقط السوداء؟ هل يمكنك تبديل الألوان؟

الكثير من الكائنات الحية لا يمكنها تمييز الألوان، فالأحصنة مثالًا لا ترى سوى الأبيض والأسود وكذلك الحال في بعض البشر!

وفقا لنظرية ين ويانغ فالأسود هو السكون، المرتبط بالأرض، والذي قد يمثل الليل والظلام، الشتاء والخريف.

أما الأبيض فهو القوة المبدعة، الحركة التي تولد التغيير، والذي قد يمثل النهار والنور، الصيف والربيع.

إذًا كيف يرى البعض العالم فقط من خلال لونين؟!

هؤلاء الناس هم دائمًا على الحدود! يتأرجحون بين الكمال والنقص، بين الظلم والعدل، بين القمة والقاع.. أن تطلب منهم التوازن أشبه بأن تطلب المشي على حبل رفيع، فلا حيلة لهم إلا أن يخلقوا أجنحة ويحلقوا نحو السماء، أو يقفزوا إلى الأسفل نحو باطن الأرض.

الفصل الأول

النهايات من اختيارنا
والبدايات من اختيارهم

عندما رفعت أجفاني المثقلة، كانت أشعة الشمس تحاول أن تخترق مسامات الستار الضيقة لتعلن إشراقة يوم جديد، شعرت وكأن كل شيء لا يزال حلمًا عابثًا يدور في رأسي، بل كابوسًا.

تحسست بطني برفق، فوجدت الجرح مغطى بلاصقة تنبعث منها حرارة، وكأن الدماء أسفلها تندفع محاولة الخروج. ما زال شعور الألم يلف جناحيه حول جسدي، وللحظة نسيت مصدره، أكان حقًّا من رحمي! بل أعمق من ذلك، أكاد أشعر به في كل شهيق وزفير. ذلك الألم لا تغطيه ضمادات ولا تندفع منه الدماء. ذلك الألم أعمق من أن أراه.

طَرَقَتْ باب الغرفة، وقبل أن أجيبَ كانت تقف أمامي، ما زالت جميلة رغم أنها تخطت الخمسين من عمرها، حتى أني أحيانًا أشعر أنها أصغر مني! لقد أحياها الحب من جديد وقتلني ذلك النصل ذو الحدين، كيف استطاعت أن تهرب منه؟ ربما كنت أنا في مرمى بصره فدفعت الطعنة عنها.

ـ هيا يا ريم! أسرعي! طارق في انتظارنا في السيارة.

قالتها وهي تفتح الستار، فاندفعت خيوط الشمس نحو أطراف الغرفة.

ـ إلى أين؟

سألتها وأنا أتأمل هيئتها المهندمة، تلك البذلة السوداء وشعرها المصفوف على كتفيها في عناية مبالغة، وأحمر الشفاه البنفسجي الذي يعكس بياض بشرتها الصافية.

ـ لا أظنك فقدتِ ذاكرتك من الأمس، لقد تحدثنا في الأمر.

قالتها بنفاذ صبر!

ـ لكني لست مستعدة بعد. أرجوكِ يا أمي!

شعرت بصوتي يختنق فلم يكن لدي أمل بأن رجائي قد يغير شيئًا.

ابتسمت ابتسامة مفتعلة، محاولة إظهار تعاطفها، ولوهلة انتابني شعور غريب وأنا أنظر إليها، شعور مخيف بأن تلك المرأة لا أعرفها.

ـ هذه بداية جديدة يا صغيرتي، ولسوف تشكريني يومًا عليها.

ـ لكني لم اخترها!

ـ لقد اخترتِ النهاية، فدعينا نختار لك البداية.

عصفور آخر في القفص!

مضى أسبوع، سبعة أيام لا أدرك أسماءهم، لكني أدرك عددها من إشراقة الشمس وغروبها، من أرقام حلقات ذلك المسلسل الممل الذي نجتمع حوله مثل نمل بائس حول فتات سكر، أي شيء يمكنه أن يحمل لنا صورًا من العالم في الخارج. ليس لأننا افتقدنا الحياة فيه، لكننا افتقدنا شعور الحكاية، حكاية كل يوم.

عدت إلى غرفتي بعد الفطور، ظلت يدي ممسكة بمقبض الباب قليلًا حين رأيتها فوق سريري، لم أفزع من وجود شخص غريب، فقد كنت على علم أن الغرفة مزدوجة، وستشاركني أخرى عاجلًا أم آجلًا، لكن ما أفزعني هو ذلك الكائن المنكمش، والذي أشبه بجنين في رحم أمه لم يكتمل نموه بعد، رفعت يديها عن وجهها الصغير ونظرت إليَّ بعينين ذابلتين، وكأنها لم تنم منذ أيام، لم أستطع رؤية ملامحها الدقيقة، والذي كان يغطي أغلبها شعرها القصير، والذي أظن لم تجتمع خصلاته معًا منذ أيام أيضًا على الرغم من نعومته.

بقيت أعيننا ثابتة قليلًا حتى تحركت بداخلي ذكرى ابنتي في آخر لقاء بيننا. كانت عيونها تتحدث بالكثير، لكن أكثر ما كانت تنطق به هو الخذلان.

ابتسمت إليها، وللحظة كنت سأعتذر لا أعرف لماذا، ذلك الشعور بالذنب تجاه العالم، لكنها ليست ابنتي.

ـ أنا كارمن. أعتقد أننا سنتشارك الغرفة.

حاولت أن أبدو لطيفة لكنها لم تعرني أي اهتمام، نظرت بجوارها فوجدت حقيبة سفر ملتصقة بالحائط وتوقعت أنها لم تفتح بعد.

ـ هذا سريري.

قلتها بنفس اللطف السابق، بدأت تتحرك بصعوبة لتنهض لكني أوقفتها.

ـ لا، لم أقصد، يمكنك البقاء فيه إن شئت لا فرق بين السريرين.

فجأة ظهر أمامنا ذلك الملاك الأسود كما أسميه، فإن كان الممرضون يلقبون بالملائكة، فلا بد من أنها ملاك الموت، حتى ما إن رأيتها وددت الاعتراف بكل شيء.

ألقت بملابس المشفى نحو الصغيرة دون كلمة واحدة وبأعين جامدة نظرت إليَّ وقالت بصوت ذكوري أجش:

ـ الدكتورة ساندي في انتظارك.

ثم اختفت فجأة كما ظهرت!

ـ الحمد لله، لقد رحل الملاك الأسود دون أن يقبض روح أي منا.

نظرت إلى الصغيرة فوق سريري فوجدتها تبتسم أخيرًا، ابتسمت لها ورددت في سري:

ـ عصفور آخر في القفص، لكني لا أظنه يحمل جناحين على أي حال!

هل يحملن الجميلات چينات القطط؟

كان صوت الكعب العالي فوق أرضية المشفى الرخامية كافيًا بأن يعرف الجميع أن الساعة أصبحت التاسعة صباحًا، وأن الدكتورة ساندي قد حضرت في ميعادها تمامًا مثل كل يوم.

في هذا المبنى الصغير المكون من طابقين كإحدى الڤيلات الخاصة لمسؤول قيادي، مكثت شهرًا من النزاع، وكأني فوق الحدود الفاصلة بين الهند وباكستان.

لكن صاحب الڤيلا لم يكن مسؤولًا قياديًّا، بل إحدى الأطباء ذوات الصيت العالي، تراه في التلفاز بوجه مبتسم مع مقدمي البرنامج يرد على أسئلة ساذجة عن كيف نعيش في عالم سعيد وكيف نتخطى مشاكلنا النفسية ببعض الحلول، والتي تناسب طفلًا صغيرًا تهشمت لعبته.

حول الطبيب ڤيلته الخاصة كما يهيأ لي إلى ذلك المكان المسمى بمشفى لعلاج المرضى النفسيين، وأظنه قد اتخذ قراره بعد أن وصل إلى أرذل العمر، وما عاد يقوى على العمل، فقرر أن يظل اسمه صامدًا لأطول وقت بوضعه على اللافتة الخارجية وتسليم الزمام إلى قطته الوحيدة بعد تخصصها في نفس المجال الدراسي.

كان من الواضح تودد الأطباء لها ليس فقط لأنها ابنة المالك، ولكنها تمتلك من معالم الأنوثة ما يجعلها أشبه بدمية، ذلك الخصر النحيل والشعر الأسود الكثيف المنسدل حتى منتصف ظهرها، عينان واسعتان جريئتان بلون بندقي وابتسامة مميزة بشفاه دقيقة وكأنها محددة بقلم.

لكن الدكتور عاطف كان أكثر المقربين، ولأني كنت أكبر المرضى سنًّا؛ حيث إني تجاوزت الخمسين، فكان الأمر سهلًا عليَّ أن أراه في طرقه البدائية والتي كنت أتبعها منذ عشرين عامًا حين أود التقرب من فتاة.

لا يفهم الرجل سوى الرجل، وربما نظرة فاضحة لا تستطيع تفسيرها امرأة، لكنَّ رجلًا آخر يمكنه فهمها دون عناء.

لكن تجربتي مع النساء الجميلات خلقت بداخلي إيمانًا قويًّا بأن هناك چينات مشتركة بين القطط وبينهن! يحملن نفس الجمال الساحر وإغراء الإيماءات، والتي تحرر غباء الرجل قبل غريزته، فيظل يحوم حول ذيلها ظنًّا منه بأنها ترغب فيه هو دون سواه، لكن ما إن حاولت الاقتراب بعد انقطاع المواء فتأكد قبلها أن تقوي مخالبك استعدادًا للعراك.

رسائل لم تنسَ في بريد الماضي!

هل تخيلت يومًا العيش بدون عمود فقري! ككائن رخو يزحف في حذر مستمر بحثًا عن مخبأ آمن بعيدًا عن عدو لم يره بعد!

إنها فطرة الخوف التي خلق عليها كل كائن حي.

الخوف من الفناء..

هل تخيلت يومًا طفلًا يحبو يحاول الوقوف على قدميه! أنه يمتد ثقته من مسند الأريكة على بعض خطوات منه، ويسرع مبتسمًا

حين يلمح ذراعين مفتوحتين على مصراعيها، وكأنها تدعوه ليسقط فيهما سقوطًا حرًّا!

لك أن تتخيل الآن ألا مخبأ للكائن الرخو، ولا أريكة ولا أذرع في انتظار الطفل!

لقد انتظرتك كثيرًا يا أبي، حتى اختبئ خلف عمودك الفقري، وبحثت عن ذراعيك وسط أحضان رجال من ورق.

أبي!

تلك الكلمة ما عدت أعرف وقعها على لساني، لكن حروفها قد حفرت في رسائلي إليك. رسائلي التي لا تدري عنها شيئًا.

إنني أسقط الآن سقوطًا حرًّا بحثًا عن الأمان في شرك العدو!

حين وصلت إلى عيادة الدكتورة ساندي كادت أجسادنا تلتصق ببعض حين خرج مسرعًا دون أن يراني أمام الباب، لكنه توقف فجأة ونظر إليَّ نظرة طويلة يسهل على امرأة مثلي فهمها ولا أعرف إن كانت نظرته أم عطره المثير أم جسده الرياضي، والذي كان على وشك احتضاني، السبب في ذلك الشعور بالضعف المخيف والذي أظن أني تناسيته وافتقدته!

رحبت بي فور دخولي بابتسامة باردة ثم سألتني بلهجة أكثر برودًا:

ـ أظنك التقيت اليوم بريم. رفيقتك الجديدة في الغرفة.

- اسمها ريم إذًا؟ تبدو لي طفلة أكثر من رفيقة!
- أنها في السابعة عشر من عمرها، لكن لا بأس إن كانت قد حركت بداخلك بعضًا من مشاعر الأمومة، يمكنك التعامل معها باعتبارها ابنة.

سرحت قليلًا قبل أن أجيبها:

- الأمومة بداخلي مياه راكدة، لا أظن أن شيئًا قادر على تحريكها.
- الركود حالة مؤقتة، صخرة صغيرة قادرة على تحريكها.
- ربما!
- أعطي نفسك الفرصة يا كارمن، لقد مضت أيام قليلة، ومع ذلك أنتِ أفضل حال الآن.
- عن أي وقت؟

سألتها

- عن أوقات كثيرة أقربها أول يوم لكِ هنا، أذكر حين دخلتِ العيادة مع والدك أول مرة كنتِ ترتجفين كطفل محموم أهلكه اللعب تحت المطر.

خرجت مسرعة وكأني أحاول الهروب من ذكرى أطلقتها كرصاصة في رأسي، ولا أدري عن قصد كانت أم لا!

اتجهت إلى الخارج أطوف في الحديقة حول المبنى أبحث عن شيء لا أعرف ما هو، تحول المشهد فجأة من حولي، فرأيت أبي يمسك بمقص كبير وينظر إليَّ طويلًا من أسفل قبعته نظرة وعيد،

وهو يفتح المقص كأفواه عملاقة على وشك أن تلتهمني، أغمضت أجفاني بقوة كطفلة صغيرة تهرب من وحش في فيلم خيالي، ثم فتحتها في فزع حين سمعت فكي المقص يلتقيان، فوجدت ذلك المزارع يشذب الزرع على مقربة مني... فركضت.

ركضت سريعًا وكأن شيئًا يركض خلفي يحاول اللحاق بي، سمعت خطوات تدق الأرض بعنف كخيول في معركة، وأصوات سيوف تخرج من أغمادها، وصراخًا من بعيد لصوت أعرفه جيدًا، صراخًا يقترب!

كان صوت ماريا ابنتي يخترق الهواء، وكأنه رعد يخترق السماء ويقترب من رأسي.

لا أدري كم مر من الوقت وأنا أركض، لكني حين فتحت عيني كانت جدران غرفتي البيضاء تحتضني.

«اللهم إن أرواحنا تطوف في فضائك كالدمى المتحركة فلا تجعل حبالك تنقطع فتصطدم بأرض ميتة»

انفك تشابك الأصابع وعادت الظهور لتلتصق بالمقاعد لتتسع الدائرة من جديد، سادت لحظة من الصمت نظرت بها ساندي إلى الدفتر الذي تدون فيه ملاحظاتها ثم نظرت إلينا في دهشة.

لم تكن تلك الجلسة الجماعية الأولى لي أنا وكارمن، لكنها أول مرة نردد فيها ذلك الدعاء، والذي كان في الأساس تأليف كارمن، فأنا لست جيدًا في تلك الأمور الروحانية.

ابتسمت ساندي وهي تحاول تجاهل ما قلناه، وكأنها لم تسمعه، ثم عرفتنا على ريم، والتي كانت تبدو إليَّ من كوكب آخر أو أنها ما زالت هناك بالفعل.

اقترحت علينا أن تكون الجلسة مميزة، فقررت أن نخرج إلى الحديقة ولا أدري ما المميز في ذلك لكننا سرنا خلفها كالقطيع حين قالت:

- اليوم هو أول أيام الخريف، والطقس مدهش في الخارج، ربما الجلوس في تلك العيادة لن يساعدكم على التحدث بشكل أكثر حرية.

كانت حديقة المشفى كبيرة إلى حد ما، بها ما يقارب من عشرة مقاعد خشبية تظللها الأشجار، وفي المنتصف نافورة كبيرة على شكل زهرة بخمسة أوراق، يندفع الماء من منتصف الزهرة وينساب فوق الأوراق ببطء حتى يصل إلى قاعدة النافورة الدائرية.

لم يكن اليوم الأسبوعي للزيارات العائلية، فكانت الحديقة هادئة نوعًا ما، فقط اثنان من المرضى يجلسان فوق إحدى المقاعد، يدور بينهما حديث خافت: أحدهما رجل في منتصف الثلاثينات والآخر شاب في العشرين من عمره، لوحت لهما ساندي بابتسامة أثناء مرورها، فهز الشاب رأسه بابتسامة، بينما لم يعرها الرجل أي اهتمام.

اتجهت ساندي نحو شجرة كبيرة خلف المبنى الرئيسي، ثم استلقت على العشب وطلبت منا أن نفعل مثلها.

- لقد هدأت حرارة الشمس كثيرًا، دعونا نلقي ظهورنا على العشب، ونتأمل أشعة الشمس من خلف ورقات الشجر، لا بد أن لكل منا ذكرى في هذا الفصل، فالخريف هو فصل الذكريات الأول بلا منازع، فلنبدأ بريم. أخبرينا يا ريم عمّا يعنيه الخريف لكِ.

ظلت تنظر ريم إلى أغصان الشجر فوقها حين هب نسيم خفيف بارد حرك خصلات شعرها، سرحت قليلًا، وهي تراقب شعاع الشمس، وهو يخترق المسافات بين الأغصان، ويلمس جبينها في دفء، وكأنه قد أثار مركز الذاكرة في رأسها فبدأت بالحديث:

- لا أدري لماذا يحب الناس الخريف! فإن جلسنا تحت تلك الشجرة للأيام المقبلة، فلسوف تتساقط علينا أوراقها حتى تتعرى تمامًا ويخترق شعاع الشمس أجفاننا المغلقة، فلن نفلح في الهروب من الضوء حينئذٍ.
- ولماذا نهرب من الضوء يا ريم؟

سألتها ساندي

- الضوء فاضح، يكشف الحقائق التي نحاول إخفاءها طوال الوقت، فأنتِ مثلًا تبدين أكبر سنًّا في النهار.

ضحكت ساندي وقالت:

- لا بأس! ليس لدي مشكلة أن أبدو أكبر سنًّا.. لكني لم أفهم بعد سر عدائك للخريف!

سكتت ريم قليلًا ثم أكملت حديثها بنبرة أشد عمقًا:

ـ لقد تساقطنا في الخريف كأوراق الشجر، لكن الشمس لم تشرق بعدها أبدا، كنت في الثامنة من عمري عندما استيقظت للذهاب إلى المدرسة في السابعة صباحًا، ووجدت أمي وسط هالة من دخان السجائر تجلس على سريرها ومنفضة السجائر بجوارها ممتلئة حتى بدأ الرماد يتناثر خارجها ليلون غطاء السرير بالأسود، لم تكن أمي مدخنة إلى ذلك الحد فسألتها وأنا أسعل من الدخان:

ـ ماذا حدث يا أمي؟ هل أنتِ بخير؟ وأين أبي؟

كانت عيناها شديدة الحمرة، ولم أعرف إذا كان ذلك من أثر السهر أم من الدخان أم أنها بكت كثيرًا طوال الليل.

ـ لقد رحل.

لم تقل المزيد، تسعة أعوام مضت ولم تقل شيئًا عن أبي سوى أنه رحل، لم تجب يومًا على أي من أسئلتي، ولم يظهر هو لسنوات طويلة بعدها، خريف بعد خريف ولم يحمل في أي مرة إجابة، يأتي في كل عام بذكرى الرحيل ويرحل وتظل الذكرى من بعده تتناولها الفصول الأربعة.

سرحت في كلمات ريم حين جاء صوت ساندي كضابط في كتيبة جيش:

ـ دورك يا هاني.

كنت أشعر ببعض الألم يتسلل إلى ظهري من النوم على الأرض وكأن ذلك الألم قد أثار من بؤرته معنى الخريف كشيء مادي يزحف في دهاء نحو رأسي.

ـ إنه (خريف العمر) كما يقال عنه، تلك الأيام التي تمضي بعد إطفاء شمعة الخمسين كأوراق نضجت حد الذبول، ذلك النجاح الذي صنعته تحت أشعة الشمس الحارقة قد أحاط به البرود، كان الكحول يبعث ذلك الدفء من جديد، يخبرني وهو يتمدد في أوردتي أن كل شيء ما زال بخير، وأن ما مضى ليس ببعيد، لكن الآن وبعد أن تبخرت آخر قطرة فيه صار الخريف أشد برودة من الشتاء، وأصبحت يقظًا تمامًا أرى قبح العالم دون غطاء، تلحق بي بصمات العمر كل يوم لتترك أثرها على جسدي كوصمة عار.

حين انتهيت من كلامي شعرت بوقع خطوات حولنا، وحين وصلني عطره الصارخ تذكرت أن الخريف موسم تزاوج القطط.

ـ وقت الغذاء، لا بد أنكم جائعون الآن بعد كل ذلك الحديث.

قالها الدكتور عاطف موجه حديثه إلى ساندي، وقد رأيته من مكاني ضخمًا، وخيل إليّ وكأنه أحجب الشمس تمامًا وهو ينظر إلينا من أعلى.

ـ أنا جائعة جدًّا، سوف أذهب.

قالتها كارمن وهي تنظف بنطالها من العشب المعلق به، ومضت مسرعة وكأن الدكتور عاطف كان إنقاذًا لها من السماء لإنهاء الجلسة قبل أن يأتي دورها في الحديث.

مد عاطف يده نحو ساندي يساعدها على النهوض، وبقيت أنا وريم دون حركة.

ـ ما رأيكِ في الدكتورة ساندي؟

سألتها

ـ في عالم يملؤه الحمقى تتزايد أعدادهم.

ـ لا أراها حمقاء.

ـ كيف تراها كذلك إن أبقيت نظرك على جسدها.

ضحكت ساخرًا:

ـ يا لك من طفلة ماكرة!

ـ لست طفلة.

ـ بالنسبة إليّ ما زلتِ طفلة، فأنتِ في عمر ابنتي الكبرى.

اقتربت ريم مني وجلست أمامي وكأنها خيال، رأيت ملامحها جميلة في ضوء النهار رغم اصفرار وجهها. كان الشباب يحارب الحزن، ويلمع في عينيها الصافية، همست لي بصوت خافت:

ـ هل تستخدم أمواس الحلاقة؟

تعجبت من سؤالها، لكن فرحت بداخلي لثقتها فيّ بتلك السرعة.

ـ هل أبدو لك كرجل يشذب لحيته! لقد صرت أشبه بابن لادن منذ جئت إلى هنا، لكن لماذا؟

ـ عندما يتجاوز الألم النفسي قدرتك تحتاج إلى ألم جسدي ليعادله.

لم أفهم أجابتها، فسألتها من جديد لكنها عادت لصمتها ونهضت لترحل، وكادت أن تقع لكنها استندت على جزع الشجرة، وبقيت واقفة لدقيقة، وكأنها تلملم جسدها الضئيل حتى تمضي.

النظرات الأولى تكشف كل شيء!

كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها، ربما كان هنا قبل مجيئي، ربما قد مر دهر وهو يجلس هناك على تلك الطاولة الجانبية، ربما أنا فقط من بدأت أرى الأشياء من حولي أكثر وضوحًا بعد مرور عدة أيام. بدا لي سارحًا في لا شيء. لم يرفع عينيه منذ دقائق ولم يلمس صحنه بعد.

ـ لقد دخل المشفى منذ يومين تقريبًا.

قالتها كارمن وكأنها قرأت ما يدور في رأسي، أو لعل نظراتي إليه كانت فاضحة. شعرت بالخجل ووضعت وجهي في صحني وتلعثمت قائلة:

ـ لقد لفت انتباهي جلسته فقط، وكأنه على وشك الدخول في الحائط.

ـ يقال إن والدته هي من أحضرته هنا. ربما ينضم إلى مجموعتنا العلاجية فنعرف المزيد عنه.

ـ صدقيني! لست بذلك الفضول.

علا صوت شجار فجأة، التفت أنا وكارمن إلى مصدر الصوت، بالرغم من عدم اكتراث أغلب المرضى بالالتفات نحوه في البداية، كان هاني يجذب الطاهي من سترته ولكمه في وجهه بعنف وهو يصرخ:

ـ أتراني أحمق! قل لي من قد دفع لك حتى تضع قاذوراتك في صحن المكرونة الخاص بي؟

كان الطاهي يحاول أن يبتعد عنه وينادي على المساعد، لكن زميله قد ابتعد خائفًا من ثورة هاني. بعد قليل دخل الدكتور عاطف والدكتورة ساندي يركضان وخلفهما الممرض المسؤول عن هاني.

كان لعاطف جسم رياضي ممشوق ووجه أسمر اللون وشعر كثيف خشن يصعب تمشيطه، لديه نظرة شذر لا تنفصل عن ملامحه. أقبل بجسده على هاني وكان يفوقه طولًا فجذبه من شعره وهو يصرخ فيه:

ـ ما بك؟ هل تظن نفسك في منزلك كي تتهكم على الطعام؟

أبعد هاني يد عاطف عنه ودفعه في صدره ليبتعد عنه. فثار عاطف وجن جنونه، نادى الممرض لتكتيف هاني، لكنه لم يكتفِ بخروجه من الكافتيريا، فقد هان كرامته أمام ساندي، وقبل أن يطلب من الممرض اصطحابه إلى غرفته جذب هاني من جديد من شعره ووضع وجهه في الصحن وهو يلطخه بالصلصة ويقول له:

ـ هل ما زال الطعام سيئًا؟

كان كل من في الغرفة قد أسقط ملعقته على الطاولة. ينظر في اندهاش وهو مشلول الحركة حتى مضى الجميع إلى الخارج وسط صرخات هاني بالتهديد وحركة جسده كالأفعى كي يفلت من قبضة الممرض.

ـ عصفور الحب يفرد جناحيه.

قالت كارمن

ـ أي عصفور؟ عمن تتحدثين؟

ـ عاطف.. ألم تلاحظي بعد علاقته مع ساندي؟

ـ لا.

ـ كفاك إذًا التعرف على المرضى الجدد.

قالتها كارمن وهي تغمز لي.

نظرت نحوه من جديد والتقت عينانا تلك المرة، لقد كان ينظر إليّ في نفس اللحظة وبقينا هكذا ساكنين، وكأن أحدًا منا يألف الآخر أو يحاول تذكره، ثم فجأة شعرت بقبضة في صدري فعدت من جديد أحدث كارمن:

ـ أفهم مقصدك، لكن لا أظن لقلب ما زال ينزف أن ينجذب لقلب آخر، فالقلوب المريضة لا يطرق الحب بابها.

ـ لكن النظرات الأولى تكشف كل شيء.

قالتها كارمن وهي ترفع صحنها من على الطاولة.

لم يستطع أحد من المرضى تكملة طعامه بعد شجار هاني، فقد وصلت رسالة عاطف إلى الجميع، وهاني لم يكن سوى حبر الكتابة. تفرق الكل في صمت.. البعض إلى غرفته والبعض إلى غرفة التلفاز والبعض إلى الحديقة وكنت أنا من بينهم.

للشك جذور من الحقائق غير مرئية

اعتدت أن أتعرف رائحة الكذب ككلب بوليسي يتعرف رائحة حشيش مدفون تحت الأرض، كما اعتدت على قفص الاتهام –سوء الظن– حتى ما عدت أذكر أسماء الضحايا المحلقين بأجنحة بيضاء فوق زنزانتي.

بعض الضحايا لم يقبل بذلك الحكم الهين، واخترع لقبًا جديدًا ربما أكثر شفقة أو ظلمًا وهو (مريض نفسي)! وهؤلاء أذكرهم جيدًا.

لم تكن النساء في حياتي أكثر من مسكنات للألم، عندما يتعبني الركض خلف النجاح أرتمي في حضن أحدهن وأغفو، لكن بعض المسكنات إدمان، وبعضها يثير الغثيان، أو في حالتي تلك يثير الشك.

إن أردت سقوط رجل من قمته فلا بد من بصمة امرأة، وإن أردت النسيان فلا بد من امرأة، وإن أردت المكوث في ذلك المكان فستدفعك إليه امرأة!

لا يهمني إن كنت مريضًا بالشك أو أني فقط سيئ الظن لأني أؤمن بداخلي أن للشك جذورًا من الحقائق غير مرئية للبعض!

اتجهت نحو الكافتيريا وحدي، فما زلت كارمن نائمة ولا أعرف لماذا كنت أتوقع أن يظل ذلك الشاب على نفس الطاولة، لكني حين دخلت كان المكان فارغًا، وكأن الكل ما زال نائمًا إثر سهرة طويلة من الأرق.

فكرت قليلًا أي نوع من المدمنين هو من تراه يحدث ذلك الحائط في وحدته! ترى من أقنعه أن شفاءه هنا؟ أم تراه مثلي لم يكن الأمر بإرادته؟

قطع هاني تفكيري ووضع صحنه أمامي وعلى وجهه ابتسامة باهتة، لم أدرِ إن كان عليّ التحدث عمّا حدث أمسِ أم أتجاهل الأمر، فآثرت الصمت.

ـ هذا الحقير سينال عقابه على فعلته.

اختصر هاني الطريق عليّ فواسيته بكلمات لم أقصد منها شيئًا، فقط لتجاوز الموضوع.

نظر هاني حوله فلم يكن هناك سوى الطاهي المشغول بالحديث مع رفيقه لعله يظن الآن أنهم يتحدثان عنه.

أخرج من جيبه علبة مناديل ووضعها بجوار صحني.

ـ لقد أحضرت طلبك.

لم يكن فيها سوى منديل واحد، وكان سهلًا عليّ رؤية شفرة الحلاقة بداخله، وطرفها الحاد يلمع تحت الغطاء البلاستيكي.

في المساء اتجهت نحو الحمام في الدور الأول، كان الحمام فارغًا، فأغلقت الباب خلفي وجلست على الأرض وأخرجت الموس في حماس وتوق شديد، خلعت ملابسي وجلست بالملابس الداخلية تحسست الموس في شبق، ثم بدأت في وضعه على ذراعي، أسندت رأسي على الباب، وأغمضت عيني، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وبدأت الضغط على جلدي، حتى أحدثت قطعًا سطحيًّا، وبدأت الدماء تنبثق منه ببطء، كنت أتأوه منتشية بالجرح، ثم مررت الموس من جديد، وأحدثت قطعًا آخر بجواره، لم أعد أكترث لشكل الندبات على ساقي وذراعي، فكانت الجروح مبعثرة في خطوط متوازية أحيانًا ومتداخلة بعشوائية أحيانًا أخرى.

بعد قليل تركت الشفرة على الأرض وبقيت لحظات أشعر بسلام داخلي، وكأن تلك الجروح قد أخلت رأسي تمامًا ومنحتني شعورًا بالفراغ محببًا إلى نفسي.

عدت إلى الغرفة بعد أن غسلت ذراعي وجففت الدماء جيدًا، حتى لا يشك أحد في أمري.

وجدت كارمن أمام النافذة تضع صورة لمريم العذراء وتصلي، لم تشعر بدخولي ففكرت أن أخرج وأتركها حتى تنهي صلاتها، لكنني توقفت حين سمعتها تبكي بحرارة شديدة.

«يا مريم الطاهرة! أنا ابنتك الغارقة في آثم ذلك العالم، لقد كرهت ضعف هذا الجسد أمام شهواته، وما عادت روحي تطيق البقاء في الوحل. فصلي من أجل أن تتحرر روحي من قيد جسدي، فإن كل من يطلب معونتك يا مريم يختبر حمايتك التي لا تكّل...آمين».

اقتربت منها ووضعت يدي على كتفها، فالتفت نحوي وقد زاد بكاؤها، وارتمت في حضني.. حاولت تهدئتها فأخذت بيدها إلى السرير ومسحت دموعها ثم سألتها عمّا حدث.

هدأت كارمن قليلًا ثم بدأت تحكي:

- كنت أعاني من الكوابيس كل ليلة، فذهبت إلى الدكتور عاطف في عيادته لأطلب منه تغيير تلك الحبوب، ربما هي السبب. كنا نتحدث سويًّا ويسألني عن حالي، ولا أعرف كيف وجدت نفسي أود عناقه أود أن يلمس جسدي، وجدت نفسي دون أن أشعر أخلع عني ملابسي ولغرابة الأمر لم يحاول أن يوقفني.. جلس ينظر إليّ حتى أصبحت عارية تمامًا.. وجدت نفسي أقبله باشتياق ورغبة جامحة وكأني عشيقته.. كنت في حالة أشبه بالسكر لم أفق منها سوى وهو يرتدي ملابسه ويلقي بملابسي فوق جسدي العاري لأرحل.

عادت كارمن إلى البكاء وهي تحاول أن تنهي حديثها:

- لا شيء يا ريم يمكنه وصف شعوري في تلك اللحظة.. لا شيء.. كنت مستلقية على أريكة الغرفة بجسدي، لكني لم أكن أنا ولم يكن هو. كان كل شيء أشبه بحلم بقيت أنكره حتى عدت غرفتي، لكن رائحته بقيت على جسدي تعذبني تخبرني أنه لم يكن حلمًا.

صدمت ممّا سمعته وتساءلت بداخلي هل حدث فعلًا ما حدث أم أن كارمن تختلق الحكاية؟ ففي ذلك المكان يختلط كثيرًا الواقع بالخيال، لكنها لم تكن لتبكي بمثل ذلك الصدق.. فجأة شعرت بالغضب يغلي في عروقي وعادت إليّ ذكرى ما حدث معي، فوجدت نفسي أبكي معها

ثم سألتها:

- هل تحبينه؟ لم يبدُ لي ذلك أبدًا.

نظرت كارمن إليّ بأعين يملؤها الحزن:

- لا أحبه ولا أعرفه ولم أفكر به قط.
- إذًا.. لماذا؟
- لا أعرف.. صدقيني لا أعرف.. هل هناك قوة خفية تحركنا لا نراها؟

سألتني وكأنها ترجوني بعينيها أن أجيب بنعم.

سرحت في ذلك الجرح الحديث الذي ما زالت أشعر أثره وفكرت في سؤالها.. هل حقًا هناك قوة أقوى منا تحركنا! هل هناك لحظات ننفصل فيها عن أنفسنا التي نعرفها! فالكثير من القتلة يتملكهم الندم وأغلب مرتكب الخطايا قد ينكرون حدوثها.

ـ ربما يا كارمن.. ربما نحن ليس أكثر من دمى في عرض مسرحي لا ينتهي كما ذكرت في دعائك.

مضت الليلة وكل حامل ألمه في صدره كخنجر بارد اعتاد وجوده، محتضن وسادته يبحث عن دفء ربما تبعثه في نفسه شمس يوم جديد..

رسائل لن تقرأ أبدًا

أحيانًا قد نتمنى عناق أي شخص فقط؛ لأننا نفتقد شخصًا ما أبعد من أن تصل إليه أذرعنا القصيرة، وها أنا يا أبي ما زلت أفتقدك. في كل صباح لا يحمل رائحة قهوتك، في كل غروب للشمس لا أسمع فيه صوت سلسلة المفاتيح عند عودتك، في كل مرة أعود إلى أمي أبكي من شيء أحزنني، فأجد أحمر شفاه جديد أو طلاء أظافر تعوض به غيابك حتى ظهر طارق فاحتل مكانك ومكاني.

وحتى تعثرت في قدري والذي كان يشبهك كثيرًا، أو ربما هكذا تمنيته، أحببته واختلط عليّ الأمر حتى ما عدت أعرف حب الابنة من عشق الأنثى، فسرت خلفه مقيدة الأيدي ومكفوفة العين.

الكل يراني ما زلت طفلة وتمنيت أن يراني هو بعينيك، أن يراني طفلته المدللة. أن يمنحني السلام في غربتي في ذلك العالم، لكنه رآني بعين رجل وجعلني امرأة، وأي ذنب يا أبي أن نكبر سنوات لم نعشها بعد! أن يتحول جسد مراهقة إلى جسد أم! أن يحمل رحم ما زال ينمو روحًا ملوثة بالغدر!

لقد انتهي الأمر وتذكرت أمي أن لديها ابنة، فهل أنت تذكرت!

الفصل الثاني

حتى وإن توقف من في الأرض عن الحركة فلن تتوقف الأرض عن الدوران!

نلجأ إلى العزلة حين يرهقنا الخذلان، حين تتحول مشاعرنا إلى آنية من الفخار المعاد لصقه إثر آلاف الانكسارات، حين يصبح ظلام الغرف المغلقة أكثر أمانًا من إشراقة شمس وصخب الشوارع وأبواق السيارات.

الخوف كان المحرك الوحيد لكي أتحرك، لكي أنجح وأتخرج من الجامعة. كنت أتجنب قهر والدي بكل السبل، فلم أعرف سوى كلمة نعم كي أتجنب حربًا سأكون الخاسر فيها بلا شك.

بعد التخرج تحول الخوف إلى حالة من الشلل، من الهروب ومن العزلة، أدمنت الحبوب المنومة حتى صرت أغلب يومي في عالم موازٍ بين اليقظة والنوم!

حفظت تفاصيل غرفتي عن ظهر قلب حتى يمكنني أن أصف أبعادها أفضل من مهندس، فبالرغم من تخرجي في كلية التجارة، لكني استطعت أن أرسمها عدة مرات وأحسب قياسات كل حائط، وكأني لا أملك عالمًا سواها.

لكن كل شيء في الخارج ما زال يتحرك ينبض بالحياة، حتى أدركت أن حتى موتي لا يمكنني اختياره.

فحتى وإن توقف من في الأرض عن الحركة، فلن تتوقف الأرض عن الدوران!

كنت أدخن سيجارة في حديقة المشفى حين رأيت (زياد) أول مرة بصحبة سيدة كبيرة في السن على ما أظن أنها أمه، بدا لي في ذلك اليوم كإحدى المعتقلين المقيدين بسلاسل من العنق وحتى القدمين، نظرته إلى الأرض أثناء سيره وانحناءة ظهره قد توحي إليك بأنه كهل!

لكن بالرغم من ذلك كان يمتلك وجهًا شديد الوسامة بملامح رجولية ولحية قصيرة وشعر أشقر ناعم ممشط للخلف في تناغم مع بشرته البيضاء، وعينين عسليتيّ اللون.

مكث في الغرفة المجاورة لي في الدور الأول؛ حيث يقسم الدور إلى جانبين: الأيمن للرجال والأيسر للسيدات، حتى يتم الانتهاء من الطابق الثاني، لذلك كان عدد المرضى لا يتجاوز عدد الأصابع، وتوفيرًا للرواتب كان عدد الأطباء والممرضين كذلك.

لا أدري لماذا أثار فضولي التقرب منه، ربما الفراغ في ذلك المكان يمكنه أن يجعلك تقضي ساعات تراقب نملة في رحلتها لنقل فتات خبز، أو لعل التحدث إلى أي شخص كان وسيلتي للهروب من الحديث إلى نفسي، تلك المواجهة التي أتجنبها طوال الوقت ولا أجد مفرًّا منها وقت الجلسات العلاجية.

حين وصلت إلى الكافتيريا كان قد أنهى أغلب الموجودين وجبتهم، وجدت (زياد) وحده في الطاولة الجانبية في طرف الغرفة كعادته تقدمت نحوه وجلست بجواره:

ـ أعذرك يا أخي أنك لم تلمس طبقك، فأسوأ ما يقدمونه هنا هو صحن البطاطا، هل ترى ذلك الطاهي ذا الشارب السميك، إنه دومًا ما يضع لي أسوأ الطعام، لا أدري سر كرهه لي.

نظر زياد إلى الطاهي ثم عاد ينظر إلى طبقي لكنه لم يجب، حاولت كسر الصمت من جديد فسألته:

ـ هل تشعر بتحسن هنا؟

رد عليّ بعد فترة كنت قد نسيت السؤال بلعثمة وارتباك كمن نسي كيف تنطق الكلمات:

ـ لم أكن مريضًا لأتحسن!

ـ إذًا لماذا أنت هنا؟

ـ نحن هنا لأننا فشلنا في التعامل مع العالم الخارجي.

ـ أراك تتحدث جيدًا، فما سر صمتك إذًا؟

عاد زياد إلى الصمت، ثم أخذ يقلب صحنه البارد بالملعقة وكأنه لا يراني.

ـ أتظن أننا فشلنا في تقبل العالم أم أن العالم هو من رفضنا؟

سألته وقد بدأ يثير فضولي أكثر الحديث معه.

- لا أظن هناك فرق.
- بل هناك فرق، لقد تعايشت ونجحت رغم كل العقبات، لكن أعدائي قد رفضوا نجاحي، وزوجتي رفضت حبي للكحول، وأولادي رفضوا سلوكي، فأصبحت وحدي أحارب في معركة لا أدري عنها شيئًا! أنا لم أدخل حربًا بإرادتي، فكيف لي أن أموت من أجل أرض ترفض أن تحمل جسدي فوقها وأنا حي؟

شرد زياد قليلًا وقال:

- هذا ما يؤكد لك ما قلته، أنه لا يوجد فرق إن كان العالم قد رفضك أو أنك فشلت في التلون لتكتسب رضاءه، إنها دائرة مفرغة تمامًا مثل مَنْ خُلق أولًا الدجاجة أم البيضة!

ساد الصمت من جديد وحمل زياد صحنه ليلقي به في القمامة، ويعود إلى غرفته، وقبل أن يمضي نظر إلى نظرة طويلة ثم قال:

- بالمناسبة! هذا الطاهي لا يكرهك، هو فقط لا يجيد الطبخ.

بعد موعد الجرعة المسائية من أقراص الدواء، كان أغلب المرضى في غرفهم في محاولات بائسة للخلود إلى النوم، خرجت إلى الحديقة بعدما ضاق بي هواء الغرفة، وكفت كارمن عن الحديث معي، كان الطقس يميل إلى البرودة، والهدوء يحيط بالمكان، فيعلو

صوت صرصور الليل ليكسر الصمت، ينبعث الضوء من قاعدة النافورة، ويتخلل العشب المحيط، وقد كان مصدر الضوء الوحيد في المكان.

وجدته يجلس وحيدًا يتأمل السماء، اقتربت منه ولم يشعر بوجودي حتى سألته بصوت عالٍ؛

- هل تسمح لي بالجلوس؟

ارتبك وأجابني وهو يتجنب النظر إلى عيني:

- بالطبع! تفضلي.

جلست بجواره أتأمل معه السماء ثم سألته:

- هل تظن أن هذا المكان سوف يغير فينا شيئًا؟

- لا أظن! هذا المكان ليس سوى مشروع تجاري مربح لصاحبه، لا أحد يعنيه إن أصبحنا أفضل أو أسوأ.

سكت قليلًا ثم سألني:

- هل كان مؤلمًا فقدان جنينك؟

اندهشت من سؤاله، كيف عرف بقصتي لكني أجبته دون تفكير:

- كثيرًا، أن تفقد روحًا خُلقت بداخلك أشبه بفقد جزء من روحك.

- لكنك لم تدافعي عن بقائه!

- كنت أضعف من الدفاع عن نفسي.

- هل كل الأمهات تتألم حين تفقد أولادها! لا أظن أن أمي تتألم الآن.

قالها بلهجة حزينة وهو يحرك العشب بقدميه.

- لا أدري! هل كانت والدتك قاسية معك؟
- لا، لكنها مثلك كانت أضعف من الدفاع عنها أو عني.
- نحن أضعف مما نظن، كيف لنا أن نغفر لمن نحب إن لم نستطع الغفران لأنفسنا.

بقي كل منا يتحدث في نفسه، يشعر بحديث الآخر، يعرف أنه يتشارك معه الألم، وأن الحياة بالنسبة إلينا علامة استفهام بحجم أعمارنا، شعرت به يختلس النظرات إليّ كل حين، كنت أشعر بألفة غريبة نحوه، وأظنه كذلك.

تأخر الوقت كثيرًا، ونحن نتحدث دون كلمات، كنت بداخلي أتمنى أن ينضم إلى مجموعتنا العلاجية، فكان الفضول يغمرني بالكثير من الأسئلة حتى وددت أن أسأله ببساطة: **من أنت؟ وكيف أرى حزني في عينيك؟** وددت أن أسأله كيف عرف بأمري، وقد اعتدت رؤيته وحيدًا حتى إني ما سمعت صوته قبل تلك الليلة! ثم طرق في ذهني أبسط الأسئلة لكن قبل أن أجمع شجاعتي للتحدث سمعت صوت الممرض يصرخ من خلفنا:

- زياد.. ريم.. كل إلى غرفته، هيا!

تمنيت له ليلة سعيدة ووجدت نفسي ابتسم في سري وأنا أمضي أمامه أردد:

ـ زياد إذًا.

تغير كل شيء بعد تلك الليلة، كنت أترنح بين شعورين: أحدهما يقتلني وهو الشعور بالذنب، والآخر يمنحني القليل من السكينة وهو الإنكار!

مضيت نحو العيادة حين استدعاني الممرض لميعاد الجلسة الفردية مع ساندي.

حاولت أن أخفي ملامح القلق عن وجهي، ترى هل عرفت بالأمر؟ لكن كيف؟ لا. ما حدث لم يحدث (صرت أردد في نفسي). أول ما وقعت عليه عيني حين دخلت كانت الأريكة، فوجدت نفسي دون أن أشعر أبكي.

اقتربت ساندي مني وسألتني:

ـ هل أنتِ بخير؟ هل حدث شيء ما، كنتِ أفضل أمس.

ـ ألم تكن تلك عيادة الدكتور عاطف؟

سألتها دون أن أشعر

ـ الدكتور عاطف يأتي في الفترة المسائية بعد الثالثة عصرًا، هل تودين تأجيل الجلسة إلى أن يحضر؟

ـ لا.. لا بأس يمكننا أن نبدأ.

جلست على حافة الأريكة وشبكت يدي وكأني أحاول أن ألملم نفسي.

جلست ساندي في الكرسي المجاور ثم سألتني إن كنت أعاني من الأرق.

كنت أجد صعوبة في التركيز في كلماتها.. سألتها بعد فترة قصيرة من الصمت:

- ما اليوم؟
- الأحد. لماذا؟
- هل يمكنني الذهاب إلى الكنيسة؟ أرجوكِ.
- لا أظن هذا ممكنًا، أنتِ تعلمين القواعد هنا. لكن لماذا؟
- أود أن أعترف.
- بماذا؟
- لا يمكنني أخبارك، لا بد أن أعترف لأبينا.

شعرت بنظرة الشك تختفي خلف ذلك القناع من المهنية التي تحاول اصطنعها:

- أنا امرأة مثلك قبل أن أكون طبيبة، يمكنني فهمك فهل تمنحيني ثقتك؟
- الأمر ليس مسألة ثقة، لكن الاعتراف لكِ لن يمحو الخطية.
- الاعتراف وحده لا يمحو الخطايا، أنتِ تعرفين ذلك؟

سكت قليلًا ثم قلت لها، وكأني أحاول أن أسترجع جزءًا من ذاكرتي:

- اعتدت أن أعترف وأخطئ من جديد، لعل يومًا يصبح الاعتراف الأخير.
- ليس هناك اعتراف أخير، إننا بشر يا كارمن ولن نتوقف عن الخطأ، لكن تكرار نفس الخطأ والاعتراف به في كل مرة هو أشبه بالخداع أكثر منه توبة، ونحن لا نخدع الرب بل نخدع أنفسنا.
- كيف تعرفين إن كان نفس الخطأ أو غيره؟

سألتها كمتهم يؤكد تهمته بسذاجة.

- لا أتحدث عن شعورك الآن أتحدث عن اعترافاتك السابقة.

حاولت ساندي تهدئة الحوار حين شعرت بارتباكِ ثم سألتني:

- هل تذكرين كيف بدأ الأمر؟

سكت قليلًا قبل أن أروي، على الرغم من أن ذاكرتي لم تخني أبدًا عن إجابة سؤال كذلك.

- كنا صغيرين، نعيش في عالم من الدمى نتحدث بها ونحركها لنخلق منها حياة كيفما شئنا، في كل يوم كنت ألملم ألعابي وأطرق باب شقتها، بعد أن تحذرني أمي في كل مرة «لا تتأخري، عودي قبل أن يعود أبيكِ من الكنيسة، فإن علم بأمر ذهابك إلى الجيران فلسوف

يحدث مشكلة»، أجيبها بحاضر وأنا أركض على الدرج بسرعة، دون أن أسمع باقي كلماتها لكني كنت أحفظها عن ظهر قلب.

في شقة صديقتي كنا نفرش ألعابنا على الأرض في حجرة المعيشة، ونبدأ في خلق قصة جديدة حتى يظهر هو، ما زلت أذكر ملامحه، بل إنني أحيانًا أتمكن من شم رائحة جسده، كان في عامه الأول من الجامعة، وكنت أشعر بخجل شديد عندما كانت تلتقي أعيننا، يطرق الباب في كل مرة ويغري صديقتي بمصروف إضافي لتشتري لنا الحلوى، فتركض هي بحماس طفلة وأبقى وحدي في الغرفة معه.

يقترب مني ليدللني؛ يلمس شعري ووجهي، يهمس في أذني فأشعر بأنفاسه وكأنها تخترق جسدي:

«هل تعلمين أنك أجمل بكثير من أختي»!

ولا أدري لماذا كان حديثه يطربني واقترابه لا يخيفني بقدر ما كان يسعدني، في كل مرة كانت لمساته لي تختلف تلمس جزءًا جديدًا من جسدي، قبلته على عنقي الصغير، ذراعه المعانق خصري، مذاق شفتيه وهو يقبلني، كفه الكبير وهو يتحسس جسمي.. وجدت فيه نشوة تفوق لعبي بالدمى فأدمنت اللعبة الجديدة حتى صرت أعطي صديقتي من مصروفي حتى تطمع هي أكثر وأطمع أنا فيه أكثر.

حتى شكت والدته في الأمر، أو ربما كانت صدفة حين فتحت باب الغرفة في عنف وكنا في تلك اللحظة قد وصلنا إلى الذروة،

فوجدتنا على الأرض نتعانق، وكنت شبه عارية فصرخت، وابتعد هو عني وخرج مسرعًا من الغرفة، وبقيت أنا في حالة من الشلل لا أفهم شيئًا، جذبتني من شعري وضربتني بعنف وهي تسبني وتسب والدتي، ثم فتحت الباب وألقت بي على السلم، فوقفت أبكي أطلب منها ملابسي، لكنها لم تستجب إلى حتى جاءت صديقتي في تلك اللحظة، وهي تحمل كيس الحلوى وتنظر إليّ في دهشة، وتسألني عمّا حدث، فركضت بعيدًا عنها لأطرق باب شقتنا وحين فتحت لي أمي وأخبرتها بكل شيء اكتملت الثورة عليّ، بل كانت يديها أشد عنفًا من أم صديقتي، ففي ذلك اليوم قد تكلل جسدي بالكدمات مكان قبلاته، وأصبحت وحدي أحمل خطية شيء لا أفهمه ولا أفهم كيف أني وحدي أصبحت المذنبة، ولماذا أصبحت أشعر بالعار والخجل في نظرات الجميع رغم أن نظراتهم له لم تتغير! كيف أصبحت فجأة الجاني وأنا الضحية فقط لأني أنثى!

كانت ساندي تدون ملاحظاتها حين انتهيت فجأة من الحديث فسألتني:

- ماذا حدث بعد ذلك؟ هل عرف والدك؟
- لم يعرف والدي بالأمر قط، لكني لم أتوقف عن المحاولات حتى أراه، كنت أفتقده بشدة أكثر من افتقادي لصديقتي، وكنت بحماقة طفلة أغار منها، وأسأل أمي لماذا ليس لي أخ مثلها، فتصرخ بي ألا أنطق اسمها أو اسمه فأبقى وحيدة، أمقت الدمى وأراقبه في صمت،

شعرت أمي بتغير سلوكي وبدأت تلح على أبي حتى نترك البيت، وبعد عام كنا قد انتقلنا إلى بيت جديد، وانتهت تلك الصفحة من حياتي لكنها لم تنتهِ أبدًا بداخلي.

ـ هل تحسن الوضع في البيت الجديد؟

سألتني ساندي.

ـ ربما هدأت الأمور في بيتي، لكنها لم تهدأ أبدًا في قلبي، كان شعوري بالفراغ والرغبة يزداد عامًا بعد عام، حتى وصلت إلى عمر الثانية عشرة، وكنت وقتها قد اكتملت أنوثتي بشكل كبير، فلم يعد جسدي جسد طفلة، وكنت أشعر بنظرات الرجال المملؤة بالشهوة، فأشعر بفرحة خفية وأشعر بذلك الفراغ يمتلئ للحظات، كنت أترنح من حضن رجل لآخر، وفي كل مرة أعود إلى غرفتي أبكي كثيرًا، أحيانًا كنت أنكر الأمر حتى أتعايش دون الشعور بالذنب، لكن أحيانًا أخرى لم أستطع الإنكار، فأذهب إلى الكنيسة وأعترف إلى الراهب، فيطلب مني أن أتوب، وألا أعود إلى فلان، وهو لا يعلم أن المشكلة ليست في ضعفي تجاه الأشخاص، بل ضعفي تجاه نفسي، فأنا لا أشعر بوجودي سوى بين ذراعي رجل.

بدأت أشعر بالتعرق بشدة فسألتني ساندي إن كنت بخير، فأومأت برأسي وسحبت منديلًا أمسح وجهي.

ـ كيف كانت علاقتك بوالديكِ؟

سألتني ساندي كمن يحاول أن يجمع حلقات لغز ما.

- كان منزلنا يجتاحه الصمت بشكل عام، أمي كانت لا تعمل وتفتقر إلى إنشاء العلاقات، تعشق المطبخ وتقضي فيه أغلب وقتها أما أبي فكان قسًّا يقضي أغلب وقته في الكنيسة بين التعميد والوعظ.

- والدك قس! ألم يشعر في أي وقت بغرابة في سلوكك؟

أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

- لا يمكن أن ينخدع أحد فيّ أكثر مما انخدعت أنا في نفسي، صدقيني لم أكن سوى طفلة منطوية، ثم أنثى ملتزمة في مشيها وحكيها، لم يدرِ أحد عمّا يدور في خاطري حتى تلك اللحظة.

- عندما اكتشف زوجك خيانتك؟

سألتني ساندي.

- بلي عندما سمعت أمي حديثي على الهاتف مع إحدى الرجال، وكنت وقتها في السنة الأخيرة من المدرسة، ما زلت أذكر صدمتها حين دخلت غرفتي وهي تتحرك وتصرخ ولا تعرف كيف تتصرف، تسأل ألف سؤال في دقيقة «من هذا الرجل»؟ «كيف تتحدثين معه بمثل ذلك الفجر»؟ «كيف ينصح أبيك الرجال قبل النساء بالتعفف وابنته عاهرة»؟ الكثير من الأسئلة والتي لم تجد لها إجابة حتى موتها، لقد ماتت وهي غاضبة عني، أحيانًا كثيرة

أحمد الرب إنها لم تعش لذلك اليوم حين كشف زوجي أمري، فقد كان زواجي هو المكان الآمن التي وضعتني فيه قبل رحيلها.

عادت الدموع تنساب من عيني دون أن أشعر، أحسست بالضعف الشديد وكأن العالم قد انحصر بين جدران تلك الغرفة، فنظرت إلى ساندي وسألتها بصوت يرتجف:

- هل لي أن أشفى؟ هل أنا مريضة أم أني عاهرة حقًّا؟ لم أعد أعرف نفسي فهل تعرفتِ عليها أنتِ؟
- لا أراكِ عاهرة، ولا أظن العاهرات يدركن عهرن، توقفي عن جلد ذاتك، أنتِ لست هنا من أجل العقاب، بل من أجل الشفاء، فدعي ذلك النقاء بداخلك يتحرر فهو خير أمل في الشفاء.

حين هممت بالرحيل كان الدكتور عاطف يطرق باب العيادة ويدخل، تسمر قليلًا حين رآني مع ساندي وبقي في مكانه لا يتحرك حتى سألته ساندي:

- أراك جئت مبكرًا اليوم، هل هناك أمر ما؟

بعثت لهجة ساندي وابتسامتها الطمأنينة في نفس عاطف فأجابها:

- لا شيء فقط وددت تناول الغذاء معكِ.

شعرت بغضب غير مفهوم ومضيت مسرعة إلى الخارج.

الجمعة التاسعة صباحًا

في الحديقة، كان النسيم البارد يداعب الأشجار، فتستسلم الأوراق الضعيفة إثر اهتزاز الأغصان لتتساقط على العشب معلنة الانفصال، تتحرك الممرضات في حركة أشبه بالروبوت لإعطاء الجرعة الصباحية، ويتحرك المرضى في حركة أشبه بالزومبي. كلّ شارد في عالمه.

في مدخل المشفى كانت هناك حركة مختلفة عن كل يوم، حركة الزائرين نحو مكتب الأمن بعد المرور من البوابة الحديدية لتسجيل أرقام الهوية في اليوم الخاص بالزيارة العائلية.

بعد ساعة من بداية موعد الزيارات كانت كل المقاعد في حديقة المشفى مشغولة بوجوه غريبة عن المكان.

لم أبحث كثيرًا وسط الوجوه، كنت على يقين بأنها أول الزائرين، راقبتها قليلًا من بعيد كانت تتأمل المكان في صمت، ملامحها توحي بالكثير من القلق، والتي لم تنجح في إخفائه حتى بعد أن اقتربت منها وعانقتني بقوة.

ـ هل وجدت المكان أفضل حالًا؟

سألتها ببرود.

ـ إنه جيد! ألا تشعر بتحسن هنا؟

سألتني بلهجة حزينة يتخللها العطف.

ـ أي تحسن يا أمي! ماذا تنتظرين من وجودي هنا؟

كانت تعبيرات الحزن تبرز على وجهها، شعرت بتلك الخطوط الدقيقة أسفل عينيها وعلى جبينها قد ازدادت عمقًا، وكأن أعوامًا قد مضت عليها منذ رحيلي عن المنزل، تعجبت كيف يضع الحزن بصمته على وجوهنا فيدركها الرائي فور النظر إلينا.

- أنتظر أن تعود بسمتك. أن يتوقف ذلك الاكتئاب اللعين من التغذي على أفكارك. أود أن تخرج إلى العالم وتكف عن الهرب.

ترقرق الدمع في عينيها، وهي تتحدث لكن عينيها بقت محتضنة الدمع.

- أنا لا أنتمي إلى هذا العالم يا أمي! لا هنا ولا هناك. لم أعد أدري إلى أين أنتمي؟ إن كان هناك فائدة واحدة من وجودي هنا فهو البعد عن أبي.

سكت قليلًا ثم سألتها:

- هل هناك أمر ما يا أمي لا أفهمه؟ كيف يكره الرجل ابنه؟ بل كيف يمكن لأب أن يخلق كل ذلك الدمار في نفس خُلقت من نطفته؟

أمسكت بيدي واحتضنت كفي وهي تقول:

- لقد تزوجت أبيك منذ خمسة وعشرين عامًا، لم أزل في الجامعة حينها، وكان هو يدرسني. وقعت في حبه رغم فارق العمر بيننا، وكان وقتها قد انفصل عن زوجته، فانجرفنا في سيل من المشاعر تكللت بالزواج، رغم

اعتراض أهلي الشديد، وضع شرطًا قاسيًا في بداية زواجنا وهو ألا أنجب قط، فقد كان لديه طفلان من زوجته الأولى، ولا يرغب في مزيد من الأولاد. وافقت لكن مع الوقت تحول الأمر إلى صراع داخلي بين رغبتي الشديدة أن أصبح أمًّا ورفض أبيك حتى مناقشة الأمر. بعد ثلاثة أعوام غلبت كفة الأمومة وأنهت الصراع بحملي بك، توقعت أن تختلف الأمور بعدها وأن يستسلم للأمر، لكني اكتشفت أن الأبوة ليست غريزة مثل الأمومة، وأن بعض الرجال قد تفتقد الشعور بها حتى بعد أن يصبحوا آباء بالفعل، وكان لا بد من أن أدرك ذلك منذ البداية حين لاحظت جفاء علاقته بأولاده، كان لا بد أن أدرك بأن الأشخاص الذين يدورون حول محور ذاتهم ليس لديهم قدرة على منح العطاء أبعد من حدود أنفسهم.

أبعدت يدي عنها وأجبتها بسخرية:

ـ لقد أتقنتِ دور الجارية يا أمي، رضيت بالإهانة لنفسك ولي. آسف إن قلت لكِ أنك لا تختلفين كثيرًا عنه. هو كرهني وأنتِ لم تحبيني.

في تلك اللحظة استسلمت الدموع في عينيها وتحررت لترسم خطوط شفافة على وجنتيها العابسة.

ـ أنا يا زياد لا أحبك! لم أحب أحدًا في حياتي مثلما أحببتك. لكني لم أستطع فعل شيء تجاه سوء معاملته ويده الطائشة،

أنت لا تدرك كم حاولت! حاولت أن أبتعد عنه لكني لم يكن لدي أي دخل مادي. حاولت أن ألجأ لأهلي فصدوني وطلبوا مني تحمل سوء اختياري، حاولت أن ألجأ إلى أهله لكنهم قد اكتفوا بمشاكل زواجه الأول، لم يكن لي باب أطرقه فاكتفيت بالصمت، والصمت قاتل يا بني. فصرخة الرفض يظل صداها يتردد فينا ونحن فقط من نسمعه.

نهضت من مكاني والغضب يفور بداخلي:

- كم كرهت ضعفك! لن أجد عذرًا واحدًا في العالم يبرر صمت أمٍّ ترى ابنها يهان في كرامته! تُجرح رجولته وفوق كل ذلك تضعه في مصحة نفسية بحجة أنه لم يعد يود التحدث إلى أحد! لا يا أمي..

لن أسامحك أبدًا.

كان من السهل سماع صوت بكائها، وكأنه في رأسي، لكن شيئًا ما كان يمنعني من الالتفات من النظر إليها من جديد، كانت كمن زرع خنجرًا في قلبي وتحاول خلعه الآن فيزداد الألم فيه.

عقولنا هي العدو الأخطر لنا!

بعثت شمس الظهيرة دفئها في المكان فهرب نسيم الصباح وتفرقت السحب.

كنت أراقب حركة الزائرين من نافذة غرفتي حين لمحت (زياد) يسرع في خطوته، وكأنه يهرب من والدته، بينما لم تكف هي عن النظر إليه ومسح وجهها الباكي حتى اختفى داخل المبنى.

بعد قليل لمحت شعرها الأشقر يلمع تحت أشعة الشمس كخيوط من الذهب. كانت تتحرك برشاقة أنثى في العشرين بجسد تظهر تقسيماته تحت فستان أبيض أسفل الركبة. خلعت نظارتها الشمسية وظهرت ملامحها، وهي تنتظر على إحدى المقاعد جميلة بأعين واسعة مكحلة وشفاه ممتلئة وبشرة بيضاء ناعمة لفتت إليها أنظار الجميع.

تركت غرفتي وأسرعت إلى الأسفل، التقت الأعين تحمل نظرات كثيرة ما بين العتاب واللوم والأسى، لكنها لم تكن تحمل أي لفتة لحنين أو شوق.

في برود ألقيت السلام، وجلست بجوارها وسادت لحظة طويلة من الصمت.

ـ لم أتوقع قدومك اليوم!

ـ لست هنا من أجل الزيارة، جئت من أجل أمر محدد ولعله الأخير.

أجابت بنبرة حادة.

ـ إذًا. ما الأمر؟

ـ أود الطلاق.

ـ رائع! أرى أن الخيانة لم تعد تروق لكِ!

- أرى أن العلاج هنا ليس منه فائدة، ما زلت مريضًا بالشك.
- هل تظنين نفسك ضحية؟ هل ذلك الشعور يمنحك راحة الضمير فتنعمين بنوم هادئ؟ كل شيء كان رائعًا، كنت أرى نجاحًا لطالما حلمت به يتجسد أمامي في كل يوم، لكنك في المقابل كنتِ تسعين إلى تدميري، تآمرت مع منافسي، وكشفتِ له أسراري، وعندما ضاع كل شيء ولجأت إلى الكحول لأتناسى سقوطي المؤلم، لم أجد منكِ سوى اللعنات والشكوى والآن بعد أن جئت هنا في ذلك المكان اللعين كي أتحرر من إدماني، وتكفّين عن الشكوى، جئتِ اليوم تطلبين الطلاق!

أتعلمين لو لم نكن هنا لكنت أوسعتك ضربًا بقدر الدمار الذي تسببتِ فيه في حياتي.

- ما دمرك سوى عقلك! من المفترض أن أغضب من كلماتك الآن، لكنك حقًّا تثير شفقتي. هذا هو المكان الأمثل لك.
- يا لك من امرأة مغرورة! لن أطلقك ولسوف تسجنين مثلي بصرف النظر عن مسمى القضبان.

نهضت غاضبة وارتدت نظارتها الشمسية وهي تقول بتحدٍ:

- إذًا لقد اخترت الحرب وأنت الأسير.

غلب عليَّ شعور غريب أنها قد تكون المرة الأخيرة التي أراها فيها، تذكرت فجأة وجهها البريء حين التقيت بها أول مرة،

وهي تتقدم إلى الوظيفة في شركتي الخاصة. تذكرت حفلة زفافنا الأسطوري والذي بقي حديث المجلات والجرائد. تذكرت لهفتها وركضها نحوي لتعانقني عند عودتي من العمل كطفلة صغيرة تطوف حولي تداعبني. تذكرت أولادي حين كانوا صغارًا أشاركهم ألعابهم وأحلامهم، فشعرت بثقل في صدري ومضيت إلى غرفتي أجر ذيول الخيبة خلفي. رأيت الدكتور عاطف في طريقي ينظر إليّ نظرة سخرية وعلى وجهه ابتسامة مستفزة، فكرت أن أعود إليه لأصفعه على وجهه، لكني توقفت حين تذكرت كلمة زوجتي: **ما دمرك سوى عقلك!**

عقولنا هي العدو الأخطر لنا.

اقتربت الساعة من الرابعة عصرًا فلم يغلق المشفى بعد أبواب الزيارة. البعض قد أتى ورحل والبعض لم يأتِ بعدُ، والبعض لن يأتي أبدًا!

في الجوار كنت أجلس مع كارمن على أحد المقاعد البعيدة نراقب حركة المرضى وأهلهم في صمت نتبادل بضع الكلمات ثم نعود مجددًا للصمت.

ـ العاهرات لا يزورهن أحد!

قالت كارمن.

ـ لست عاهرة.

أجبتها بتعصب.

- آسفة لم أقصد.. لماذا لم تأتِ والدتك؟
- لا أدري، ربما مشغولة مع زوجها.
- هل هو رجل جيد؟
- هل هناك رجل جيد!
- ربما!
- حين يتعلق الأمر بشهوتنا فإننا نصبح كقطيع من الخرفان، نمضي خلفها وكأنها الراعي.
- ربما هي تحبه يا ريم، أو ربما تفتقد لأمان رجل.
- لم أرها تؤمن بالحب حين علمت بعلاقتي. لقد حطمت ثورتها كل شيء.
- الأمر مختلف. فما زلتِ صغيرة والرجل كان في عمر والدك، كما أن حملك زاد من الأمر تعقيدًا.
- لا أدافع عن نفسي، لكني لا أراها أمًّا مثالية أمضت نصف عمرها تدور حول نفسها لا تعرف شيئًا عن أمري، وحين أخطأت أخذتني بدم بارد إلى الطبيب كي أجهض، ثم ألقت بي هنا لتتفرغ لحياتها.
- هل كنا نحن أبناء مثاليين؟

سرحت في سؤال كارمن ثم قلت بلهجة قاطعة:

- كنا أطفالًا! وهذا يكفي.

ـ دعينا نذهب إلى المطعم، لا داعي من الانتظار هنا لن يأتي أحد اليوم.

في المطعم كان كل من هاني وزياد يجلسان على نفس الطاولة، بينهما كرسي فارغ، وكأنه حاجز حتى لا يبدأ أحدهما في حوار، اقتربت كارمن من الطاولة وأنا خلفها.

بقي كل منا يحدق في صحنه بعد أن ثقلت ألسنتنا بالكلمات، لكني اجتهدت لفتح حوار فسألت (زياد):

ـ كيف كانت زيارة والدتك اليوم؟

نظر إليّ في ارتباك ثم نظر إلى باقي المجموعة:

ـ لا أود التحدث في الأمر، ليس الآن.

تدخل هاني وقال:

ـ أنا أيضًا لا أود التحدث في الأمر.

ضحكت كارمن وهي تمضغ الطعام ثم قالت:

ـ لا تقلق لن يسألك أحد عن عروستك الشقراء.

حين دخل عاطف مع ساندي، تبدل وجه الجميع من الشرود والحزن إلى الغضب والسخط حتى تحدث هاني:

ـ هذا الرجل يثير اشمئزازي.

نظرت إليه بطرف عيني:

ـ الطيور على أشكالها تقع.

نظرت كارمن إلى صحنها، وحاولت إخفاء تلك المرارة التي شعرت بها حين رأته خاصة بعد معرفتها بجدية علاقته مع ساندي، تمنت لو باستطاعتها أن تخبر الجميع أن هذا الرجل أحقر من مجرد ظنهم فيه.

كان اللون الأزرق يتلاشى تدريجيًّا في الأفق، والشمس تغرق في حمرة الشفق. تحلق أسراب الطيور فوق رؤوسهم معلنة الرحيل وصوت أقفال البوابة الحديدية يعلو صداه في المكان، فقد انتهى موعد الزيارات، وأغلقت بوابات الأمل في وجه المرضى الذين أضناهم الانتظار، بينما تمنى البعض إن لم تفتح من الأساس.

عدنا إلى مقعدنا في المساء وكأنه موعد لم تنطق به أفواهنا، لكني لم أشك أنه هناك في انتظاري.

ـ ما الأمر؟ أشعر أن شيئًا ما يثير غضبك. هل هي زيارة والدتك؟

سألته:

ـ هل ما زلت تحبينه؟

شعرت بيأس خفي في سؤاله.

ـ لا أعرف يا زياد، لا شيء بداخلي أجد تفسيرًا له. لكن ما أعرفه جيدًا أن كل شيء اختلف عمّا كان.

ـ ريم أنا أحبك.

قالها ورأسه مدفونة بين كفيه، وكأنه خشي أن يراني أو يرفع يده عن وجهه، فلا يجدني فبقي مختبئًا كمن يخشى عقاب اعترافه.

قتلني صمتي في تلك اللحظة، ربما أكثر ما قتله! لا شك أن (زياد) قد لمس قلبي لكن قلبي ما زال يحتضر، لكنه حتى في احتضاره ما زال ينبض.

لم ينبس أحدنا ببنت شفة فيما بقي من تلك الليلة؛ لأن اللوعة إذا عظمت تصير خرساء، فبقينا ساكتين جامدين كعموديْ رخام قَبَرَهما الزلزال في التراب، ولم يعد أحدنا يريد أن يسمع الآخر متكلمًا؛ لأن خيوط قلبينا قد وَهَتْ حتى صار التنهُّد دون الكلام يقطعها[1].

إنا حملنا الحزن أعوامًا وما طلع الصباح
والحزن نار تخمد الأيام شهوتنا
وتوقظها الرياح
والريح عندك كيف تلجمها
وما لك من سلاح
إلا لقاء الريح والنيران
في وطن مباح[2]

---

(١) جبران خليل جبران

(٢) محمود درويش

أغلقت الكتاب ووضعته بجواري على السرير، في تلك الغرفة الصغيرة لم أكن أرى شيئًا سوى أربعة جدران، وسقف منخفض جميعها ملونة باللون الأبيض، لا تلفاز أو راديو ليكسر الوقت. فقط نافذة صغيرة تطل على الحديقة وطاولة خشبية دائرية وكرسي واحد بجوارها، بقيت في سريري أحدق في مصباح الغرفة الباهت أتسائل: أي ذنب قد فعلت لأستحق ذلك العقاب! لقد أحببت العزلة، لكن العزلة التي اخترتها تختلف كثيرًا عن تلك العزلة التي أجبرت عليها.. تُرى فيما كان يفكر أبي حين وضعني في ذلك المكان! فهل يمكن لعزلة أن تشفي من عزلة! أم أنه ظن أن تلك الدكتورة وأدويتها ستلون العالم أمامي فأركض بعد خروجي أعانق الناس في الطرقات! أم تُراه فقط حاول التخلص مني وكأني جثة قد فاحت رائحة فسادها في المنزل. ثم وسط ضباب الأفكار تذكرت ريم فشعرت للحظة بقلبي يرتجف، اقتربت من النافذة لعلي أراها في الحديقة لكنها لم تكن هناك.

خرجت من الغرفة حاولت الاقتراب من الغرف النسائية، وأنا لا أدري فيما أفكر لكني توقفت حين لمحت الممرض يجلس في منتصف الطريق وينظر إليّ شذرًا.

كنت أتحرك في الممر الصغير المقابل لغرفتي في توتر حتى سمعت صوت الممرض:

ـ هل هناك خطب ما؟

أجبته متلعثمًا دون تفكير:

ـ لا.. فقط أردت زيارة هاني.

ـ يمكنك طرق غرفته، ربما ما زال مستيقظًا.

لم أجد مخرجًا، فطرقت الباب طرقة خافتة، وقبل أن أمضي كان هاني قد فتح الباب.

وجدت غرفته تشبه غرفتي تمامًا، تفوح منها رائحة السجائر بشدة زادت من الجو اختناقًا، فبقيت واقفًا خلف الباب لا أعرف فيما أتحدث، حتى أشعل هاني سيجارته وجلس على الكرسي المجاور إلى النافذة وبدأ الحديث:

ـ لم أتوقع أن تخرج من قوقعتك لزيارتي!

اقتربت من السرير وجلست على طرفه أتأمل الدخان المتصاعد من سيجاره.

ـ أتعلم يا صديقي، لا أحد هنا يود سماع قصتك. هم هنا فقط لتعريتنا أمام بعضنا الآخر بحجة أن ذلك العلاج يفيد! أحيانًا أتخيل ساندي في إحدى تلك الجلسات وهي تخطط في تلك المذكرة التي تلصقها نحو صدرها المثير أنها لربما ترسم لوحة ما لغروب الشمس أو لعشيقين يتعانقان.

قال هاني.

ـ لا أدري! ربما.

أجبته:

ـ أعرف ما يدور في رأسك الآن! هذا الرجل لا يكف عن الشك في الآخرين. ربما أنت محق لا يمكنني أن أتوقف عن

ذلك، حتى جلوسك هنا الآن أشك أن هناك أمرًا آخر خلفه، لكني لست بأحمق، فإن شكوكي دائمًا ما تستند إلى دلائل.

شعرت بمزيد من التوتر.

ـ لا يدور شيء في رأسي ولا يهمني إن كانت ظنونك حقيقة أم مرضًا، فأنا لا أكترث لشيء.

اقترب هاني بكرسيه أكثر، ثم قال بصوت مسرحي:

ـ لو أن ساندي تسمعك الآن لكتبت في تلك المذكرة «زياد لا يهتم لشيء».. «زياد يعاني من الاكتئاب»! لا أدري لماذا يصنفنا الناس أننا حين نزهد في الحياة بأننا مصابون بالاكتئاب، وعندما نلتصق بشيء يمنحنا السكينة فإننا نصنف مدمنين، وعندما نرى الحقائق التي لا يراها الآخرون فإننا مجانين! من الذي يضع تلك القواعد على أي حال!

ـ ما أهمية المسميات إن كنا جميعا هنا الآن!

ـ أعتقد أن أهميتها في تلك الحبوب التي يعطوها إلينا، والتي لا تحسن من الأمر في شيء، فلا أخفي عليك يا صديقي، ما زلت أشتهي كأسًا من النبيذ الأحمر، وأكاد أن أدفع عمري بالمقابل.

سكت هاني ثم نظر إلى عيني، وكأنه يحاول أن يكشف ما يدور في رأسي ثم سألني:

ـ وأنت فيما يمكنك أن تدفع عمرك مقابل الحصول عليه؟

كان كل ما يدور في رأسي كيفية الخروج من ذلك المأزق الذي وضعني فيه بحثي عن ريم.

- لا أنكر أني أشتهي تلك الحبوب المنومة، ذلك الإحساس بالغرق في وسادتك بعيدًا عن ضوضاء العالم، فمنذ جئت إلى هنا لا أنام أكثر من بضع ساعات متقطعة. يمكنني دفع عمري مقابل ليلة نوم هادئة بلا كوابيس.
- إنها صفقة مربحة إذًا، فإن دفعت عمرك مقابل حبة منومة فلسوف تنام إلى الأبد بعدها.

قالها هاني وهو يضحك، لكني لم أجد الأمر مضحكًا فبقيت صامتًا.

- ما زلت صغيرًا، فأنا أدفع عمري من أجل لحظات يمكنني أن أتناسى فيها فشلي، أما أنت فلا أفهم ما يدفعك إلى الهروب وأنت في ريعان شبابك.

شعرت بالحزن وكأنه سحابة سوداء استقرت فجأة فوق رأسي:

- إن ريعان الشباب يحمل ندبات الطفولة، كما تحمل الشيخوخة ندبات الشباب، نحن نتناسى لكننا لا ننسى. ما زلت أحمل صرخات أبي في صدري كدخان سيجارتك التي لا تنتهي، أنت لا تشعر به في صدرك إلا بعد أن يتكاثف، ويغلق منافذ التنفس، لكنك تعود لتشعل سيجارة أخرى، وكأن شيئًا لم يكن! إنه الموت ببطء. أحيانًا أستيقظ فزعًا أشعر بجلدة حزامه الجلدي على جسدي ولا ينتهي الألم فور استيقاظي، بل يبقى ملازمًا لي كظلي طوال اليوم. بعد التخرج اعتزلت العالم في غرفتي

لم أطلب شيئًا من الحياة أكثر من حبة منومة لتحميني من جلدات أبي، لكن حتى تلك الغرفة لم تستطع أن تسعني فوجدت نفسي هنا، أنت تحاول أن تتناسى فشلك، أما أنا فقد حملت ذلك اللقب من قبل حتى أن أدرك معناه.

- لا أدري يا زياد أيهما أسوأ أو بالأصح أي جرح يحدث ندبة أعمق: الأب الذي يعاقب طفله بالجلد والسباب أم الأب الخفي الذي لا أثر له سوى اسمه في الأوراق الرسمية! لدي ثلاثة أولاد لم يصل أكبرهم لعمرك بعد، صدقني إن أخبرتك أني لم أعد أعرف شيئًا عنهم، فربما أحدهم يجلس أمام صديق له الآن ينزف مثلك من الحرمان، لا أدافع عن أبيك لكني آخر شخص لإدانته.

سادت بعدها موجة من الهدوء، كل منا يعانق سلواه. هاني ظل ينفث سيجارة يحملها بين شفتيه وكأنه يستمد منها الحياة، وأنا أسترجع صورة ريم من ذاكرتي، وأحسب عدد الساعات الفاصلة حتى تشرق الشمس لأراها من جديد.

في إحدى الغرف الفارغة في الطابق الثاني كانت رائحة الدهان الأبيض الرطبة تفوح من الأركان، فقامت ساندي بفتح النافذة وطلبت من المساعد إحضار كراسي بعدد الحاضرين.

ـ لقد اخترت تلك الغرفة من أجل جلسة اليوم، فهي مختلفة، وتوقعت أننا ربما نحتاج إلى مساحة أوسع بعيدًا عن ضوضاء المشفى.

بقي كل منا يحدق في ساندي ينتظر توضيحًا أكثر لوجودنا في تلك الغرفة.

ـ اليوم سنقوم بما يسمى السيكودراما. هاني وكارمن يمكنكما تمثيل مشهد خيالي قد يكون ماضيًا أو حلمًا، فلنقل إن هاني هو والد كارمن، وهو موجود هنا الآن، كيف يمكنكم تخيل الحوار. لكم مطلق الحرية في التحرك في المكان.

ركزت كارمن أعينها على هاني وبقي شاردًا لا يعرف كيف يمكن أن يكون شعوره إن كانت ابنته حقًّا مكان كارمن. كانت عيناها صافية فيهما براءة لا يمكن أن تكون خادعة، رق لها قلب هاني، وتخيلها ابنته الصغيرة، وشعر أنها ضحية مخاوف قد يكون هو نفسه السبب فيها.

اقتربت كارمن من هاني وجلست على ركبتيها أمامه ثم نظرت إلى الأرض وبدأت في الحديث:

ـ قد سمعت مئات الاعترافات من بشر أقل أو أكثر مني في الخطايا، فهل يسع قلبك أن تسمع ابنتك الوحيدة.

وضع هاني يده على رأسها وقال:

ـ قلبي وأذني يصغيان.

ـ لقد تعديت الحدود التي وضعتها يا أبي.. لقد كسرت القواعد وتخطيت الضوء الأحمر وذهبت إلى أبعد مما تخيلت يومًا أن أذهب إليه بمحض إرادتي.

رفعت كارمن رأسها نحو هاني والدموع تترقرق في عينيها ثم أكملت:

ـ لكن أتعلم يا أبي.. لم أكن أبدًا سعيدة.

ـ هل تغفرين أنت لي؟

سألها هاني.

تعجبت كارمن من سؤال هاني فسألته:

ـ ماذا أغفر لك؟

ـ لقد خلقت من بذرة طاهرة وذلك الطهر هو سبب تعاستك. عن سوء اعتقاد ظننت أن تلك البذرة لا تحتاج أن تسقى، وتركت للعالم ينتزع منها الحياة بظلمه وظلمات طرقاته، وعن سوء تصرف زوجك، رجل لا تكنين له أي مشاعر، فقضيت على ما تبقى منها بدلًا من إنقاذها. فاغفري لي يا صغيرتي.

صدمت كارمن من رد هاني كانت تتوقع أن يصرخ في وجهها أن يطردها أن يضربها أو يسبها لكنه لم يفعل.

بقيت قليلًا وكأنها تلملم الكلمات المتناثرة في زوايا عقلها حتى قالت:

- لطالما أحببتك يا أبي، لكني خشيتك أكثر وخشيت عقابك، ليتني اعترفت لك من البداية ربما أنقذتني رحمتك وعطفك.
- ليست رحمتي من تنقذ، بل رحمة الرب، فاطلبيها ما دمت حية، فلسوف تحررك يومًا من شر نفسك.

انتهت الجلسة وطرق في ذهني سؤال غريب. هل كان والد كارمن ليمنحها ذلك الأمل؟! ذلك السلام؟! لكن كيف وهو لم يأت حتى لزيارتها!

هذا ما جئت من أجله وهذا ما سترحلين به

كيف يمكن لنا أن ننفصل عن أجسادنا، أن نفقد السيطرة عليها، وكأنها لا تمت لنا بصلة! أم أن عقولنا المتحكمة أصابها خلل ما إثر حادث لا نذكره لكنه ما زال يحركنا دون أن نشعر.

لم أستطع يومًا أن أعرف كيف انفصل عني! كيف أصبح شخصًا لا أعرفه؟! كيف يمكنني أن أحمل طهر الأبيض وقبح الأسود معًا؟ بل الأسوأ حين يمتزج اللونان فأتوه في دوامة رمادية لا نهاية لها.

في المساء كانت ريم تحتضن وسادتها، تحدث صوت غطيط خافت، بينما أشاهدها من السرير المجاور وأنا ألتمس النوم أن يزور أجفاني مثلها حتى يستريح عقلي قليلًا من التفكير، لكن ساعة قد

مضت ثم ساعتين حتى صارت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فخرجت من الغرفة، وأنا لا أدري إلى أين أتجه، وجدت الممرض في منتصف الطريق فخطرت لي حيلة فجأة دون أن أفكر في عواقبها.

اقتربت منه ثم قلت في فزع مصطنع:

ـ أرجوك ساعد ريم، فقد وجدتها تجرح ذراعيها الآن وحاولت أن أوقفها لكنها في حالة مزرية، وأخشى أن تقطع شريانها دون أن تشعر.

وقف الممرض وهو متردد من صحة كلامي، لكنه فكر ماذا لو كنت محقة، وحدث مكروه لريم فسوف يكون أول من يسأل، فاتجه مسرعًا نحو الغرفة لكني أخبرته أني سوف أذهب لأخبار الدكتور عاطف وبقيت في مكاني حتى ابتعد.

اتجهت مسرعة نحو غرفة هاني، وفتحت الباب دون أن طرقه، كان هاني ما زال مستيقظًا يجلس بجوار النافذة ففزع من دخولي وسألني:

ـ ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟

بقيت ثابتة في مكاني كتمثال متحجر لا تطرف لي عين، وكأني شخص آخر لا أتوقع أفعاله. اقترب هاني مني وكرر سؤاله، لكني بقيت صامتة، ثم خلعت سترتي وألقيت بها على الأرض:

ـ عانقني!

جذب هاني سترتي من الأرض ووضعها على صدري.

ـ هل يجب أن أعانقك دون ملابس؟

وضعت كفي على ذقنه وأنا أتحسسه:

ـ ربما ترغب في المزيد.

ـ ارتدي ملابسك يا كارمن لن أفعل ذلك.

شعرت بصوتي يختنق:

ـ لماذا؟ هل تراني قبيحة؟

ـ بل لأني أراك جميلة، ولكنك لا ترين نفسك الآن.

ارتديت ملابسي ومضيت نحو الباب في حركة أشبه بالسير أثناء النوم، لكن هاني أوقفني فجأة قبل أن أفتح الباب حتى يتأكد أن الممرض ليس في الخارج.

ثم قال لي إنه بإمكاني الخروج الآن، لكنه جذب يدي قبل أن أخرج وعانقني وهو يربت على شعري ثم قبلني في جبيني وقال:

ـ هذا ما جئت من أجله، وهذا ما سترحلين به.

الفصل الثالث

كان في جمعتنا سلوى لنا، شعر كل منا بألم الآخر وأشفق عليه، فحمل كل فرد فوق همه هم الثلاثة الآخرين. جمعنا الحزن على طاولة الفطور والغذاء، وجمعنا يأسنا في جلسات العلاج، وجمعنا الهرب من الغرف المصمتة إلى حديقة المشفى في المساء. تشاركنا الشعور بالذنب والسخط على الماضي والأمل في غد بلا ندبات.

مضى أسبوعان وكأنهما عامان. الساعات طويلة، والحبوب تخدر الشعور بدل من الشفاء. اختفت أسماء الزائرين من الدفاتر في الأسبوع الثاني، فاختلطت المشاعر ما بين الحزن والراحة من مواجهة اللقاء.

ولا أنكر أن وجود ريم في المجموعة هو ما كسر عزلتي وجعلني فردًا منهم.

ـ هل لاحظ أحدكم ذلك المريض الجديد؟ إنه ينظر إليّ طوال الوقت وكأنه يعرفني!

قالها هاني وهو ينظر نحو الطاولة المقابلة لنا في المطعم.

نظرت كل من ريم وكارمن خلسة، بينما أطلت أنا النظر فيه محاولة مني لفهم ما أثار شك هاني.

كان شابًّا في منتصف العشرينات بوجه شاحب، يمسك الملعقة ويجد صعوبة في وضعها في فمه، يبدو وكأنه يعاني من اكتئاب شديد، ربما ناتج عن إدمان أو صدمة ما.

ـ الشاب في عالم آخر، أراهن أنه لا يراك من الأساس.

أجبته.

شعرت بخجله فعاد ليكمل طعامه.

في الجوار ارتفع صوت ممرضين يتحدثان عن الخبر الجديد، والذي كان حديث المشفى ذلك الصباح.

ـ هذا الرجل ذكي، لقد حدد هدفه من البداية، وها قد صار المشفى والعروسة تحت يده.

قال أحدهما فرد الآخر عليه:

ـ لا دخل لنا، فلا أظن أن زواجه من الدكتورة ساندي ورئاسته للمشفى سيغير من وضعنا في شيء.

تبدلت فجأة ملامح كارمن وأصابها نوبة من الغضب لم أفهم سببها، ثم سألتنا في دهشة:

ـ هل سمعتم؟ لقد أصبح ذلك الوغد مديرًا للمشفى!

ـ اهدئي يا كارمن، فوضعنا لا يختلف عن وضع الممرضين في شيء، فما همنا سواء أكان مديرًا أو مجرد طبيب.

قالها هاني.

وحدها ريم كانت تدرك ما يدور في رأس كارمن، فهي الأقرب لها لكنها بقيت صامتة لا تود التحدث في الأمر، لكن الغضب لم يهدأ على وجه كارمن، حتى شعرت وكأن الدماء تنبثق من رأسها.

بقيت تهز في قدميها وتقضم أظافرها ويبدو عليها الغليان! حتى اشتدت النار فيها وتقاذفت ثورتها كالحمم البركانية، فسرت في جسدها وقلصت أمعاءها فانفجر الأدرينالين في أوردتها وركضت خارج المطعم.

انطلقتُ كرصاصة طائشة من بندقية جندي يلفظ أنفاسه الأخيرة.

اقتحمتُ مكتب ساندي دون طرقه ولا أعرف إن كان سوء حظ أم حسن حظ وجود عاطف في ذلك الوقت.

فصرخ في وجهي فور دخولي:

ـ كيف تدخلين هكذا دون طرق الباب؟

تجاهلته ووجهت حديثي إلى ساندي:

ـ لقد جئت لأخبرك بأن هذا العاشق قد ضاجعني عندما جئت إليه في لحظة ضعف وقد تجاهل الأمر كأن شيئًا لم يكن، فهنيئًا لك به!

نظرت ساندي إلى عاطف وسألته بلهجة شك:

ـ هل ما تقوله حدث بالفعل؟

ـ لا أصدق أن طبيبة مثلك تصدق خيالات مريضة بالفصام! تلك العاهرة تتوهم أن الرجال جميعًا يشتهونها، وإن كانت آخر امرأة في العالم فلن أفعل ذلك معها.

طلبت ساندي مني التوجه إلى غرفتي، فشعرت بقوة غضبي تتلاشى والضعف ينال مني:

ـ ألا تصدقيني؟

ـ من فضلك يا كارمن اذهبي إلى غرفتك لا داعي لأطلب من الممرض إجبارك على ذلك.

مضيت في خنوع وقد احترقت وحدي بثورتي وتذكرت في أسى كلمات هاني المعتادة:

ـ لا أحد هنا يكترث لقصتك، لا أحد يسمع.

في اليوم التالي كان كل شيء قد عاد إلى طبيعته، والوضع الجديد لم يعد أحد يتحدث عنه، أما ثورة كارمن فقد بدأت فيها وانتهت بها!

كنت أتحرك بخطى ثقيلة حاملة صحني، مثل باقي المرضى في حركة آلية كمن ينفذ التعليمات حرفيًّا، فآخر ما أريده الآن هو تناول الطعام.

ـ أين كارمن؟

سألني هاني فور رؤيتي.

- لن تأتيَ.
- هل هي بخير؟

سأل زياد.

- هل يوجد أحد هنا بخير!
- تكلمي يا ريم كفاك ألغاز!

قالها هاني بنفاذ صبر.

- صدقني يا هاني لا أعرف، بعدما حدث أمس بقيت معها في الغرفة أحاول تهدئتها، فقد كانت لا تكف عن البكاء ولا تتحدث كطفل مريض لا يستطيع أن يصف ما يؤلمه، ثم في المساء أتى الممرض في موعد الجرعة المسائية، لكني لاحظت أن عدد الحبوب معه أكثر من كل يوم، لم تختلف جرعات أدويتي في شيء، بينما كارمن قد تناولت الضعف. سألته لماذا زادت الجرعات فكان رده أن الدكتور عاطف قد أمر بذلك، وعندما حاولت إيقاظها في الصباح كانت في حالة يرثى لها، لم تقوَ على الحركة، ويثقل عليها نطق الكلمات.
- يا إلهي! كنت أعلم أن عاطف لن يدعها تفلت بما فعلته أمس.

قال زياد.

- لماذا لم تخبرينا يا ريم بما حدث من البداية؟

سأل هاني.

ـ ها قد عرفت. ماذا ستفعل؟

سكت هاني قليلًا ثم قال:

ـ أكره شعور العجز في ذلك المكان. أن يتحكم في مصائرنا بضعة أوغاد.

ـ لو كنا نملك الخيار ما كنا هنا الآن.

ـ إلى متى إذًا؟

سأل هاني.

ـ حتى نُشفى.

أجبته بسخرية.

ـ نحن هنا نوع من العقاب وليس من أجل الشفاء.

قال زياد.

ـ إنه لأمر مضحك حقًّا! من تسببوا في أذيتنا هم من وضعونا هنا بحجة الخوف علينا!

قاطعنا هاني:

ـ دعونا من ذلك الندب الآن ولنفكر ماذا سنفعل؟ هل سنترك كارمن هكذا؟ لا بد من أن نفعل شيئًا.

نهضت ساخطة وأنا أردد:

ـ غريق يعرض النجاة لغريق!

قوم نحرق هالمدينة
ونعمر واحدة أشرف
قوم ننسى هالزمان
ونحلم بزمن ألطف
ما زالك بلا شيء
ما فيك تخسر شيء
وأنا مليت من عشرة نفسي
كان بدي غير العالم
مش عارف كيف العالم غيرني
كان بدي أحمل السماء
وهلأ أنجق[١] حامل نفسي
قول إني منيح[٢]

ارتفع صوت الأغنية من الراديو في مكتب الاستقبال، فانسابت أمواج الموسيقى حتى وصلت إلى مسمعنا في الحديقة. كانت ريم تدندن مع الموسيقى، وكأن قوس الكمان يعزف على أوتار قلبها: «قول إني منيح.. قول إني منيح» وهي تهز كتفيها في تأثر.

---

(١) بالكاد

(٢) مشروع ليلي

كنت أنظر إليها مبتسمًا، أحاول أن أتأمل تفاصيل وجهها في ذلك الضوء الخافت، استمع إلى صوتها وهي تنشز عن اللحن في حماس، مانعًا نفسي أن أضحك، أكتفي فقط بابتسامة حتى لا أفسد عليها متعتها.

كانت الساعة لم تتخطَ بعد التاسعة مساء، لكن هدوء المكان يوحي وكأنها بعد منتصف الليل.

ـ لديك صوت جميل.

ضحكت ريم:

ـ يا لك من كذاب!

ـ لديك ضحكة رائعة أيضًا، لكن تلك المرة لا أكذب، هذه هي المرة الأولى التي أراكِ تضحكين.

نظرت ريم إليّ مبتسمة:

ـ شكرًا لك، إذًا فأنت السبب فيها.

ـ ما أمر شفرة الحلاقة إذًا؟ لقد أخبرني هاني.

نظرت ريم إلى الأرض ثم قالت:

ـ إنه نوع من تسكين الألم.

ـ وهل هذا هو سبب وجودك هنا؟

سرحت ريم قليلًا لتستعيد ذكريات تجتهد كل يوم لنسيانها:

ـ الأمر أكبر من مجرد قطع سطحي في جسدي.. لقد حاولت الانتحار. في لحظة ما تفتقد إلى سبب واحد للبقاء. في

لحظة ما يسري الفراغ في روحك، فيوقف بداخلك الحياة تمامًا كسريان الهواء في الدماء.

- لقد كنت هناك.. لقد تملك مني ما تملك منك، وكأنها لعنة لا سيطرة لنا عليها، لكني كنت أضعف من أن أنتحر فهربت إلى النوم. تناولت خمس حبات منومة في ذلك اليوم. كنت أعرف أنها لن تقتلني لكن غرقي في سبات عميق ليومين متواصلين كان القشة التي جئت بها هنا! أتعلمين؟ أحيانا أشعر أن كل شيء هنا مجرد حلم، وأني ما زلت نائمًا إثر تلك الحبوب.

توقفت ريم عن الحديث ثم سألتني:

- كنت أضعف من أن تنتحر! هل ترى في الانتحار قوة؟
- لا أظن أحدًا يمكنه قتل نفسه عن ضعف أيًّا ما كان مصدر قوته، قد تكون قوة الألم أو قوة اليأس لكن الضعف وحده لا يقتل.
- ربما!

احتضنت يدي يديها وأمسكت بها بقوة:

- لم أكن أحلم قبل رؤيتك. لم أكن أعرف أن للأحلام وجودًا.

ابتسمت ريم ابتسامة ناعمة:

- وبما تحلم الآن؟
- أن تبقي معي!

ـ هنا؟

ـ إن كان هنا ما يجمعنا فلنبقَ هنا.

ـ ألا تخشى أن يرانا عاطف؟

اقتربت منها حتى شعرت بأنفاسها. نظرت طويلًا في عينيها ولأول مرة أحطم جدران الخجل والرهبة، كانت عيناها تدعوني في صمت لأن أبقى قريبًا، فتشجعت أكثر رغم ضربات قلبي المتسارعة، ولثمت ثغرها طويلًا، ثم وضعت يدي على شعرها وعلى وَجْهَيْنَا ابتسامة مختلفة، ابتسامة توحي بنشوة خفية تسري في قلوبنا معًا. لمست ريم كتفي ثم جذبتني إليها وعانقتني بقوة.

ـ لم أكن أدرك أن هناك طرقًا أخرى لتسكين الألم!

قالتها ريم وكأنها تلتمس الأمان بين ذراعي.

ـ لم يكن لدي أمل.

قلت لها.

ابتعدت ريم قليلًا ثم قالت لي أن شيئًا ما تود أن أراه، فرفعت أكمام سترتها وهي تخبرني:

ـ إني قبيحة.

اندهشت كثيرًا من شكل ذراعيها، كانت الجروح أكثر وأعمق مما تخيلت، بعضها حديث لم يلتئم بعد، وبعضها قد ترك آثار ندبات.

وضعت يدي على ذراعها:

ـ أنتِ جميلة يا ريم! القبيح هو الألم.

وضعت رأسها على صدري، وطلبت مني أن أحكي لها قصة مثل قصص ما قبل النوم، فقد مضى عمر على ذلك منذ أن رحل أبوها.

ضحكت وطوقت كتفها بذراعي:

- كان يا ما كان، كان هناك ملك مصاب بنوع نادر من عمى الألوان، كان لا يرى سوى الأبيض والأسود، كان يملؤه الغضب والحقد، فكيف أن يستمتع شعبه بتناغم الألوان ويختارون منها كيفما شاءوا، بينما هو لا يستطيع أن يعطي رأيه حتى في لون غرفته. فأحضر الوزير وطلب منه أن تصبح المملكة كلها باللونين الأبيض والأسود فقط، فصدم الوزير من القرار وقال له:

- كيف يا مولاي نخير الناس بين الأبيض والأسود، فلن يختار أحد أن يدهن بيته بالأسود أو يرتدي الأسود هو وأطفاله طوال الوقت.

فاقتنع الملك بكلام الوزير وقال:

- إذًا لا ندع الأمر اختيارًا، فمن يخطئ يدهن بيته بالأسود، أما الصالحون فتلون بيوتهم بالأبيض، ويمكن بتلك الخطة أن تحول المملكة إلى أرض للطاهرين.

وبالفعل نفذ الملك خطته، وكان كلما سأل الوزير عن الأمر قال:

- اللون الأسود في تزايد مستمر.

حتى أتى يومًا راكضًا إلى الملك وهو يردد:

ـ لقد ساد الظلام يا مولاي، وتلونت المملكة بالأسود.

تعجب الملك وقال:

ـ كيف؟! ألا يوجد بيت واحد طاهر؟!

فرد الوزير:

ـ بل لا يوجد بيت واحد لا يسكنه بشر.

عندما انتهيت من القصة، كانت ريم قد غفت على صدري فبقيت يقظًا لأول مرة أحارب النوم في مقلتي لأول مرة أهرب من النوم إلى الحياة.

للعزلة ألوان

بإمكاني التحدث عن العزلة لساعات أو لأيام أو ربما أكتب عنها كما فعل ماركيز في كتابه الشهير، لقد أتقنت جيدًا كيف يمكنك التلون مع أغطية الفراش.

فللعزلة ألوان وقد اختبرتها جميعًا، وكبرت بين الجدران كنبات صخري يخشى الحياة، لكنه لا يكف عن التمدد والنمو حتى ما عادت تسعه الحيطان.

لقد اعتدت الهروب حين أسمع وقع خطوات وتمنيت أحيانًا أن يكون لي جحر أحتمي فيه مثل كل الفئران؛ حيث ارتبط ذلك الصوت في رأسي بالمصيدة، لكن بلا جبن لأني لم أكن فأرًا على أي حال.

تلك الصورة التي زرعها أبي بداخلي جعلت من الصعب التجرؤ على الإعجاب بفتاة أيًّا من كانت، فالفاشلون مثلي لا يقوون على حماية أنفسهم، وأول ما تبحث الأنثى عنه في الرجل هو الشعور بالأمان.

لكن ريم استطاعت كسر ذلك الحاجز بداخلي، كما لم تستطع ساندي في كل تلك الجلسات من التحليل النفسي ومحاولة إيجاد لب المشكلة والذي أظنه واضحًا وضوح الشمس.

لكني في أعماقي كنت أعرف أن اضطراب ريم هو ما منحني القوة للاقتراب، فحتى وإن اختلفت الظروف، فيبقى الضعف حلقة الوصل بين جوانحنا المتكسرة.

لكن الرياح لا تأتي دومًا بما لا تشتهي السفن، وفي حالتنا تلك فإن الرياح لا تأتي إلا للإطاحة بها.

بعد لقائنا الأخير وصلني من ممرض لا يقل عنا اضطرابًا بأن (عاطف) قد ثارت ثورته وهبت العواصف في مكتبه، ولم أتعجب من ردة فعله، فرجل مثله لا يتمنى أكثر من أن تبقى حبالنا تتحرك بين أنامله والحب حرية وهو يؤمن أن لا حرية لأمثالنا.

دعتني ساندي في العيادة، وكنت على علم بمغزى حديثها، حتى ولم أكن أعلم أي الطرق في الحديث سوف تسلك.

ـ هل تحبها؟

سألت ساندي دون مقدمات.

ـ كثيرًا.

- لكنك تعلم وضعها.
- عن أي وضع تتحدثين؟

سألتها باستخفاف.

- هل تظن أن أحدًا منكما لديه القدرة أن يحكم جيدًا على مشاعره؟
- لا أفهم! هل ليس لدينا القدرة أن نحب! يمكننا أن نشعر بمشاعر أخرى بخلاف الحزن.
- لا تسئ فهمي يا زياد، لكن كلاكما الآن يمر بمشاعر غير مستقرة، وأي صدمة عاطفية قد تزيد من الوضع سوءًا.
- لماذا تنظرين إلى الأمور من جانب مظلم؟ ألست أنتِ من تدعونا دومًا للأمل والتفاؤل؟

كانت ساندي تبذل قصارى جهدها حتى تبدو هادئة، وهي توصل رسالتها لكن الجدال والذي أظنه لم تتوقعه مني بدأ يستنزف طاقتها فغيرت من لهجتها إلى لهجة أكثر حدة:

- أنت محق، ربما تنجح علاقتكما لكن ليس الزمان ولا المكان ملائم لذلك.
- ما المطلوب مني الآن؟

سألتها لاختصار الطريق كي تخرج ما في جعبتها.

- عندما أخبرنا الممرض ذلك الصباح بأمر لقائكم أمس، أراد عاطف أن يتحدث إلى والدتها، لكني منعته من ذلك خشية على نفسية ريم، ونفسيتك أيضًا، فربما تطلب

والدتها نقلها من المشفى، لذلك كل ما أرجوه منك أن تتوقف تمامًا عن لقائها أو التحدث إليها في الوقت الراهن، فإن تكرر ذلك لن أستطيع التدخل، وسوف يكون القرار بيد الدكتور عاطف وحده.

شعرت بغصة تعتصر قلبي. تشوشت رؤيتي تمامًا وكأن كل شيء من حولي قد تحول إلى اللون الأسود، أردت أن أصرخ، أن أبكي، لكن شيئًا ما قد شل لساني وحركتي، فبقيت ساكنًا أنظر إلى ساندي ولا أراها. أشعر بثقل العالم في أنفاسي.

عادت من جديد بلهجة تشبه لهجة أمي حين يحيط اليأس بها:

- يا زياد الحياة ليست أبيض وأسود فقط! لا يمكنك الحكم على الأشياء بأن تكون الآن أو لن تكون إلى الأبد، بعد الانتهاء من خطتكما العلاجية والخروج من هنا يمكنكما ممارسة حياتكما كما تشاؤون. وقتها فقط سوف يصبح لديكما الإدراك الكافي لموازنة الأمور.

عدت بعدها إلى غرفتي، أسدلت الستار فوق النافذة فقد كان ضوء الشمس يرهق عيني. ألقيت بجسدي على السرير كمن يحمل صخرة ثقيلة على عاتقه.

«ما من مرض أخبث من الحزن حين نحاول تسكينه يعود أشد وأعمق»، وضعت الوسادة فوق رأسي وكأني أختفي عن أعين الجدران، والتي ما زلت أنمو بداخلها.

يوم طويل يثقله الانتظار. لم يظهر زياد في الكافتيريا أو في الحديقة، ولأول مرة تمنيت جلسات ساندي الجماعية حتى أراه.

مضى النهار بضوضائه وحل الظلام يلقي بأشباح المخاوف وعلامات الاستفهام في رأسي. تجمدت أمام نافذة الغرفة أتأمل السماء الفارغة من النجوم، والقمر هلال يظهر طرفه من خلف السحب. فزادت ظلمة السماء من تلك القبضة المبهمة في قلبي سألت نفسي:

أيعقل أن أكون أحببته؟ أم أن العقل لا يطرق أبواب تلك الأماكن وكأنها أماكن مقدسة تطرد شياطين العقول.

اقتربت من سرير كارمن وأمسكت بكتفها لإيقاظها:

ـ كارمن! أود التحدث معك كفاك نوم.

حاولت كارمن فتح أجفانها بصعوبة وقالت بكلمات متقطعة:

ـ ما الأمر؟

صرخت بصوت يائس:

ـ ماذا بكِ أنت؟ أفيقي أرجوكِ.

حاولت كارمن أن تنهض لتجلس، لكنها لم تقوَ على ذلك، فأجابت بلسان ثقيل وكأنها ثملة:

ـ ليس الأمر سيئًا فلم أعد أشعر بشيء، تشابهت الأيام واختلط الليل بالنهار، أليس رائعًا أن نفقد الشعور؟

ازدت غضبًا:

ـ لا ليس رائعًا لقد صرت أشبه بالموتى!

ـ وهل كنا أحياء؟

فاض الكيل بي، فأمسكت بها بعنف وحاولت أن أرفعها لتجلس، لكن ثقل جسدها لم يساعدني، فأمسكت بوجهها وأنا أصيح في أذنها:

ـ لن أدعك هكذا، اسمعيني جيدًا، لا بد من أن تقاومي أرجوكِ.

أجابتني كارمن بيأس:

ـ لكن كيف؟

ـ عندما يأتي الممرض غدًا بجرعات الدواء لا تبلعينه، فقط ضعيه أسفل لسانك حتى يخرج، هل يمكنك فعل ذلك؟

سألتها متوسلة.

حاولت كارمن أن تومئ برأسها، فحركتها مرة واحدة إلى الأسفل، ولم تقوَ على تحريكها مرة أخرى.

حزنت أكثر من وضع كارمن وأشفقت عليها حتى تناسيت بها ألمي للحظات. عدت إلى سريري وبقيت أنظر في اتجاه سرير كارمن ثم قلت لها:

ـ أنا أحبك يا كارمن، وأحتاج إليك فقاومي من أجلي.

لم تجب كارمن لكني كنت متأكدة من أنها تسمعني.

جلس يحرك الشوربة بالملعقة وهو شارد في البخار المتصاعد منها، كان وجهه يبدو أكبر عمرًا. ازدادت لحيته كثافة وفقد بضعة كيلوجرامات من وزنه، فظهرت انحناءة كتفيه أكثر وضوحًا، لم يجد من يثرثر معه حتى ينشغل عن التفكير، فبقي صامتًا يقاوم وحده تيار الأسئلة التي لا تنتهي في ذهنه.

ـ ها نحن هنا لم يعد سوانا على تلك الطاولة!

رفع هاني رأسه لتحيتي بابتسامة عريضة، وكأنه يشكرني على قطع أفكاره.

ـ كيف حال كارمن؟

ـ ليس أفضل من أمس، كيف حال صديقك الهارب؟ دعه يخرج من غرفته لا أنتظر منه شيئًا.

ـ مسكين زياد، كان كالطفل يحبو إليكِ كأمه، لكن ساندي وعاطف قد اجتمعا عليه فهرب إلى قوقعته من جديد.

ـ كلنا مساكين يا هاني. هذا المكان يخرج أسوأ ما فينا.

ـ أنتِ محقة. لقد جئت هنا بإرادتي على عكس أي منكم. كنت أظن أن هذا المكان سوف يحررني من قيود عقلي وتعلقي بالخمر، لكني وجدت نفسي مقيدًا بشكل آخر، شكل أشد قسوة، تلك الحبوب حولتني إلى إنسان آلي صرت أكثر عطشًا لحياة حقيقية.

ـ وما الحياة الحقيقية؟ إن كنا في الخارج محاصرين بمن يحملون لنا الأسواط وفي داخلنا نحمل لأنفسنا المزيد منها. وحتى هنا حيث هربنا المزيد من العقاب.

- إن كنا نحن لا نرحم عقولنا فكيف يرحمها الآخرون.
- هل فقدنا السيطرة عليها؟

سكت قليلًا قبل أن أسأله:

- هاني! هل نحن حقًّا ما يدعوننا بالمجانين!

ابتسم هاني ابتسامة يملؤها الأسى:

- وما المجانين يا ريم؟ الذين يحلمون بعالم خالٍ من الألم، أم الذين يرفضون أن تلوث قلوبهم بالخطايا، أم الذين يرفضون الحياة كالأنعام، أم الذين يحاولون تفسير أسرار ما وراء الحياة فتُجهد عقولهم دون أن يجدوا جوابًا!
- أظن أنهم من لم يتحملوا قساوة الحياة، ولم يتحملوا أن يصبحوا أشد قسوة منها.
- إن كان هذا تفسيرك إذًا فكلنا مجانين.

بقي كلانا ينظر إلى صحنه في صمت حتى سألني:

- هل تفتقدينه؟
- كثيرًا!

أجبته دون تفكير ثم أعدت عليه سؤاله:

- هل تفتقد كارمن؟
- شعوري نحو كارمن مختلف، لا أدري لماذا أراني مسؤولًا عنها، ضعفها يستفز رجولتي. أراها من الداخل، فأجد فيها براءة طفلة يتيمة تحتضن دميتها وتنتظر عند مفرق الطرق.

- وكيف تراني إذًا؟

سكت هاني قليلًا وهو ينظر إليّ ثم قال:

- أنتِ بنت قوية يا ريم، لكنك تستخدمين قوتك ضد نفسك. تجلديها وكأنكِ تحاولين التحرر منها، لكننا للأسف لا يمكننا التحرر من أنفسنا، حتى وإن أصبحنا مجانين كما يزعمون.

سرحت وشعرت بكلمات هاني مختلفة. كان دائمًا يميل إلى التحدث في أي أمر سطحي مع أي أحد ليمضي الوقت، لكنه اليوم أكثر حكمة وأكثر حزنًا.

- هل تظن أنك مريض بالشك كما شخصت حالتك ساندي؟

سألته في خجل.

- ليست ساندي وحدها من ترى ذلك، فالأمر لا يحتاج إلى طبيب ليلاحظ، ولا أنكر أني كثيرًا ما أظلم أناس لا يهمهم من أمري شيء، لكن ما تعرضت له في عملي أفقدني الثقة في كل شيء. أن أخسر ما سعيت له طوال حياتي بسبب المؤامرات جعلني أؤمن أننا في عالم يملؤه الشك. اقرئي التاريخ يا ريم، وستجدين أن الشك وحده هو من أنقذ أممًا من الغرق وأن الثقة قد أودت بحياة الكثيرين وألقت بهم إلى التهلكة.

- إنه ذلك الخيط الرفيع من جديد الذي لا نراه.

- أي خيط؟

ـ النور والظلام.. الأبيض والأسود.

ـ ربما لذلك نحن مجانين!

قالها هاني وضحك ضحكة ساخرة.

ابتسمت وحاولت من جديد تناول طعامي. فوضعت ملعقة السلطة في فمي ومضغت كثيرًا دون أن أدرك مذاق ما فيه.

اقترب منا ذلك الممرض بجسده الضخم وملامح وجهه العابسة، كمن أجبر على العمل في ذلك المكان، أو أن تعامله مع المرضى جعل منه رجلًا يرفض التعاطف حتى لا يحمله الطوفان هو الآخر إلى إحدى الغرف.

ـ الدكتورة ساندي تود رؤيتك في مكتبها.

قالها الممرض بصوت أجش ومضى دون أن يسمع رد هاني.

سألته إن كان لديه جلسة اليوم، فأومأ رأسه بلا، وهو يفكر في سبب ذلك الاستدعاء، نهض وودعني دون أن يلمس صحنه.

من يدمن النجاح، فبإمكانك قتله بنصل الفشل!

وحدهم مدمنو النجاح من يمكنهم تذوق المشهد والتلذذ بتفاصيله.

انعكاسة الشمس فوق واجهة المبنى الزجاجي كحصن يمنع شعاعها من التطفل، الركض لفتح باب السيارة خشية انتظارك، انحناءة الظهور والوجوه المبتسمة في خضوع، الكل يتملق رضاءك.

لم تخدعني الأقنعة ولا الكلمات العذبة، كان من السهل رؤية رؤوسهم عارية، قراءة أفكارهم الملغمة بقنابل الكراهية وسماع دعائهم لتمني السقوط، حتى وإن لم تتحرك به ألسنتهم.

كرهني الجميع لتعريتهم أمام أنفسهم، فتلحفوا بإيمان مزيف بأني مريض لعله يخفي عواراتهم عن عيني، ظل الجميع للحظة الأخيرة يقومون بالطقوس اليومية لتقديم فروض الطاعة وإظهار حب ملوث بالعداء مدعيًا أمام نفسه بأنه ضريبة الركض خلف لقمة العيش، عذر مكرر ومألوف للغاية حتى لا يبصق أحدهم حين ينظر إلى المرآة.

لم أكن أكثر من مجرد أرقام لأولادي وعضو ذكري وحساب في البنك لزوجتي الحمقاء، كل ما عشته لم يكن سوى خدعة تلذذت بها، ولم أجرؤ على كسرها يومًا حتى كسرتني هي على يقين مني.

حين دعتني ساندي إلى مكتبها كان في رأسي الكثير من الأسئلة، هل طلبت رؤيتي لتسألني عن زياد؟ هل علمت بأمر كارمن حين أتت إلى غرفتي؟ ترى أي الأقنعة سترتدي لإقناعي بأن أمرنا يهمها في شيء!

طلبت مني الجلوس فور دخولي، وأن أهدأ، يبدو أن صخب أفكاري عكس ملامح التوتر على وجهي بشكل واضح.

ـ أنت تعلم يا هاني أنك مختلف عن باقي المرضى، فأنت أكبرهم عمرًا وأكثرهم نضجًا، وأنا أكن لك احترامًا كبيرًا،

وما حدث مع الدكتور عاطف من قبل لن يتكرر مرة أخرى، وأعتذر عنه بنفسي.

قطعت حديثها المنمق:

ـ بدون مقدمات من فضلك، فأنا لست صغيرًا كما قلتِ. ما الأمر؟

أخرجت ورقة من درج مكتبها ووضعتها أمامي وهي تقول بصوت متعاطف:

ـ لقد رفعت زوجتك قضية طلاق، وللأسف ربحت القضية نظرًا لوضعك الحالي.

أمسكت بالورقة ونظرت إليها كثيرًا وكأني أحاول تكذيب ما قالته ساندي:

ـ وما المطلوب مني الآن؟

ـ لا شيء فقط أريدك أن تأخذ الأمر بحكمة، فأنا أعلم أنك لم ترغب في الانفصال.

ـ هل أخبرك أحد من قبل أنكِ طبيبة فاشلة! بل هل خرج أحد من ذلك المشفى وهو في حال أفضل مما كان عليه!

ـ أعلم أنك غاضب، لذلك لن آخذ كلماتك على محمل الجد أو إهانة شخصية، أما بخصوص المشفى فهو كما ترى ما زال مكانًا صغيرًا في طور الإنشاء، نستقبل أعدادًا محدودة من المرضى، وهم في تحسن كل يوم عمّا قبله.

ـ أود الخروج من هنا. أود أن أرى أولادي.

ـ لا تتخذ قرارًا وأنت غاضب، يمكننا التحدث في الأمر لاحقًا حين تهدأ.

ـ لست غاضبًا، لكني أود الخروج من هنا.

كان صوتي بدأ يعلو، ويخرج مني كصراخ، وقد فقدت القدرة على التحكم فيه.

ـ للأسف هذا ليس ممكنًا في الوقت الحالي، ما زال أمامك شهران على الأقل، حتى نضمن أنك لن تنتكس، فخروجك الآن معناه رجوعك للإدمان بالتأكيد.

ـ من أنتم؟!

ـ نحن الأطباء من نحاول أن نساعدك لتتخطى تلك المحنة بسلام.

ـ كفاكِ كذب، تلك الكلمات التي ترددينها لكل مريض لن أصدقها ولا تعنيني. أنتم هنا لا تكترثون لشيء سوى النقود.

عادت ببرود تفتح الملفات أمامها وتدون ملاحظاتها ثم قالت بتجاهل:

ـ يمكنك التحدث في الأمر مع الدكتور عاطف، فهو من يملك القرار الآن.

وكأن الزمان قد عاد إلى عهد بلا ساعات، وحدها السماء من ترشد كم مضى في الانتظار، وما قيمة الساعات في ذلك المكان على أي حال، إنه نوع آخر من التعذيب، ربما أصعب من تعذيب المذنبون خلف قضبان السجن، ففي كل شروق شمس وغروبها يوم يقرب المسافات إلى التحرر من تلك القيود، أما هنا! فلا أحد يدري في أي شروق سيمضي أو في أي غروب ستعود الأحلام.

جلست في انتظار عاطف في الحديقة. أشعل سيجارة وأطفئ أخرى، لعل في إحداهما يحضر عاطف وينقذ صدري من الاحتراق.

مضى وقت ليس بقليل، وقد استسلم عقلي لتيار الأفكار والذي حاولت الهروب منه منذ الصباح.

تأملت المكان من حولي كيف لم أره من قبل بمثل ذلك القبح، هؤلاء المرضى يتحركون في آلية تثير أعصابي أكثر، أود لو أن أصرخ فيهم حتى يركضوا ويعلنوا سخطهم على ذلك المكان، لكن بعضهم ربما لم يدرك بعد قبح المكان كما أراه، ربما يرون العالم بالخارج أشد قبحًا.

سيطر على ذهني استنتاج جديد، بقي يتردد في طيات عقلي بلا انقطاع حتى تمنيت أن أصوب نحوه رصاصة حتى أقتل الشك في مهده.

إنها المؤامرة مرة أخرى! مؤامرة دخولي هنا بحجة الإدمان حتى تتمكن هي من الطلاق وتستحوذ على ما تبقى معي من المال، ربما تتزوج وتترك الأولاد أو ربما الأمر ليس فيه رجل آخر!

ظلت الشكوك تنتشر في رأسي كهالة دخان السجائر المحيطة بي، ثم تذكرت ما قالته ساندي فربما تلك هي المرة الأولى التي تقول شيئًا يبقى معلقًا في ذهني حين توقعت انتكاسة إن خرجت الآن. فقد كنت في تلك اللحظة اشتهى الخمر أكثر ما تشتهي رئتي الهواء، أفتقد مذاق الكحول على لساني، تلك الرعشة في جسدي وهو يتدفق في أوردتي كعاشق يرتشف من حبيبته بعد طول غياب، يبعث الحرارة في رأسي فيشتت تلك الأفكار حتى تتبعثر أمامي فلا أستطيع أن ألملمها، أهدأ كطفل صغير تهدهده أمه حتى ينام.

سمعت صوت البوابة وهي تنفتح، كان عاطف قد وصل، فوقفت متربصًا لاصطياده فور دخوله على الرغم من أني لم أعد أطيق النظر إليه منذ شجاري معه في المطعم.

مضى عاطف متجاهلًا وجودي كما توقعت فقطعت طريقه بجسدي:

ـ أريد أن أخرج من هنا.

نظر عاطف إليَّ في استخفاف ثم نظر إلى البوابة الحديدية وقال بلهجة ساخرة:

ـ فلتخرج البوابة أمامك!

ـ لا تسخر مني. لا بد أن أخرج من هنا.

حاولت ألا أفقد السيطرة على أعصابي، وضع عاطف يده على كتفي وهو يصطنع التعاطف ثم طلب مني الجلوس:

ـ أعرف أن أمر الطلاق لم يكن في الحسبان، لكن دعنا نتحدث بعقلانية.

نظر عاطف حولنا فوجد أحد المرضى يحدق في السماء ويتحدث معها فهز رأسه مبتسمًا وأكمل حديثه:

ـ دعنا نقل بمنطقية بدلًا من عقلانية، ماذا ستفعل إن خرجت من هنا الآن؟ هل ستذهب وتتشاجر معها؟ هل تعنفها؟ أم تعاتبها وتطلب عودتها؟ هل أي من تلك الحلول سوف يجبرها أن تتراجع عن قرارها!

أنت رجل ذكي يا هاني، لا تخسر طريق العلاج وقد سرت خطوات فيه بالفعل من أجل امرأة، لا يوجد امرأة تستحق التضحية.. حتى زوجتك الجميلة.

وضعت رأسي على كفي محاولًا تجاهل تلك الرغبة الشديدة أن أصفعه على وجهه، وكأن طاقة الغضب من زوجتي قد تحولت نحو ذلك الأحمق وزوجته.

ـ أنا لا أفهم! كيف لا يمكنني الخروج؟ ومن صاحب القرار؟ لقد جئت هنا بإرادتي فما الخطأ إن أردت الخروج الآن!

ـ أنت لم تسمعني؟!

قالها عاطف بنفاذ صبر فانفجرت دون شعور وصرخت في وجهه:

- بل سمعت هراءك كما سمعت هراء زوجتك من قبل، وما زالت أود أن أخرج.

نظر عاطف إليّ نظرة باردة ثم قال:

- حاولت أن أكون لطيفًا معك لكن الأمر لم يجدِ، لأكون واضحًا أكثر تلك المرة، نعم لقد جئت هنا بإرادتك، لكن لأنه لم يكن أمامك خيار بعد كسر ذراع ابنك وأنفه في شجارك معه وأنت ثمل، وزوجتك قد خيرتك وقتها إما أن تتعالج أو ترفع قضية ضدك ومن هنا جاء قرارك بالعلاج.

تسمرت في مكاني وثبتت مقلتي دون أن تطرف عيني كنت كمن ألقي بماء مثلج فوق رأسه:

- هل هي من أقنعتكم بذلك؟ لقد كنت أشك طوال الوقت أنها خلف انهيار الشركة، لكنها دومًا ما كانت تتهمني بالشك، فأشك في نفسي وألتمس منها العذر، لكن ذلك الصراع لم ينتهِ أبدًا في داخلي، وها هو أنا الآن متهم بجريمة لا وجود لها. فهل رأيت رجلًا من قبل في مثل حماقتي؟

لم أكن أنتظر ردًّا، كنت كمن يتحدث إلى نفسه.

- لقد كنت ثملًا يا هاني، لا بد أنك لا تتذكر! أنت لست هنا كمتهم، لكنك مريض وفي حاجة إلى علاج، وذلك هو السبب الرئيسي لوجودك هنا.

تركته ومضيت مثقل الرأس لأول مرة دون خمر، أكاد أرى أشباح الشك تلاحقني، وكأن الحقائق والأكاذيب قد اختلطا كاختلاط الهواء البارد بالساخن، فهبت الرياح شديدة تطيح باليقين والشك معًا.

أزحت الستار عن النافذة، فانتشرت خيوط الشمس تضيء الغرفة الصغيرة، نظرت عبر الأعمدة الحديدية فلمحت وجوهًا جديدة في الحديقة، فأدركت أن اليوم هو يوم الزيارات العائلية، وأنه قد مر أربعة أسابيع على وجودها هنا.

ـ أغلقي الستار، الشمس تؤذي عيني.

قالت كارمن وهي تغطي وجهها بالوسادة:

ـ لقد أصبحتِ مثل مصاصي الدماء، ألم تكتفِ من النوم بعد؟ سوف يصيبك قرح الفراش إن لم تنهضي من ذلك السرير.

كنت أحاول رفع الوسادة عن وجه كارمن، فتحت عينيها بصعوبة ثم قامت وجلست على السرير:

ـ ها قد استيقظت! ما الجديد في العالم اليوم؟

قالتها كارمن بسخرية فنظرت إليها بابتسامة عريضة:

ـ أنتِ أحسن حالًا اليوم.

ـ لكن رأسي ما زال مثقلًا، وجسدي يؤلمني.

- ربما من أعراض انسحاب الدواء من جسدك، أو ربما أثر نومك كأهل الكهف.
- ماذا لو عرف عاطف بالأمر؟
- لن يعرف، فقط ابقي هنا كما أنتِ، وعندما يحضرون لك الطعام تظاهري بالنوم.
- إلى متى؟

سألت كارمن.

- هذا السؤال غير مسموح به هنا.

سألت كارمن عن حال زياد وهاني، فأخبرتها بما حدث كمن يذيع نشرة إخبارية. لم تندهش من حديثي، وقالت:

- إنه لأمر متوقع من عاطف وساندي.

نهضت من جوار كارمن لأذهب إلى الحمام، فأوقفتني كارمن وأمسكت بيدي كمخبر يبحث عن قطعة حشيش، رفعت كم سترتي فوجدت جروحًا حديثة وقطرات دم متجلطة فوقها.

- لم يبق مكان في جسدك لجرح جديد.
- ما زالت جروح قلبي تنزف يا كارمن.
- لقد توقفت عن تناول الأدوية من أجلك، فهل تتوقفين عن إيذاء نفسك من أجلي!

سألتني كارمن وهي تمسك بيدي وترجوني، ابتسمت ووعدتها أن أحاول.

في طريقي إلى الحمام أوقفني الممرض:

ـ لديكِ زائر ينتظرك في الاستقبال.

ـ أنا؟! من؟

سألته مندهشة.

ـ لا أدري لقد طُلب مني أن أخبرك وحسب.

قالها الممرض ورحل قبل أن أسأله سؤالًا آخر.

لمحت ظهره وأنا على الدرج، كان يجلس على إحدى المقاعد في الاستقبال الرئيسي ويرتشف القهوة، لم أتمكن من رؤية وجهه، لكني تعرفت عليه من شعره الأبيض وعنقه القصير وسترته الرمادية، شعرت بقلبي ينبض بعنف، وددت أن أركض إلى غرفتي وأختبئ أسفل السرير كطفلة تخشى رؤية شبح من خيالها، وددت أن أركض إلى الحمام وأمارس طقوسي الخاصة في تسكين الألم، لكني تذكرت أن شفرة الحلاقة في الغرفة، وكارمن سوف تشك في أمري إن عدت الآن. مضيت بخطوات ثقيلة حتى وجدت نفسي أمامه. إنه هو! وكأني أقف أمام مرآة من المستقبل. نفس عيني الواسعة بجفنيها العريض، نفس الذقن المثلثة بطابع الحسن، تفاصيل وجهه لم تغب عن ذهني منذ ذلك اليوم.

مد يديه مبتسمًا:

ـ وجدت الحديقة مزدحمة، ففضلت انتظارك هنا.

مددت يدي وأنا أرتجف ثم جلست أمامه دون كلمة واحدة.

ـ ألا تذكريني؟

- بلي! ما زلت أحمل اسمك.
- لديكِ ذاكرة قوية منذ صغرك، لكني لم أتوقع أن تذكريني، فحين التقينا آخر مرة كنتِ ما زلت تحت تأثير المخدر.
- كنت أراك حلمًا، لكنه حفر في ذاكرتي بشكل لم أفهمه.

سكت قليلًا ثم سألته:

- لماذا أنت هنا؟ وكيف عرفت مكاني؟
- كنت أريد أن أطمئن عليك، فمنذ رأيتك في ذلك اليوم بعد عملية إجهاضك وأنا قلق عليك، تواصلت مع أمك فعرفت بأمر محاولتك الانتحار ودخولك المصحة وعرفت أيضًا أمر زواجها.
- قلق! هل هناك كلمة أكثر مصداقية كفضول مثلًا؟!
- لا تظلميني يا ريم قبل أن تفهمي.
- أفهم ماذا؟
- إنه حين تنقطع خيوط الاتصال بين زوجين يتحول الزواج الى عقد احتكار، وتتحول الحياة إلى مشاهد معادة بلا معنى.
- لكنها كانت تحبك.
- الحب وحده لا يكفي لاستمرار الزواج، الحب حالة.
- الحب لا يكفي والأولاد لا تكفي والجنس لا يكفي، فكيف يستمر الزواج إذًا؟!

سألته بغضب.

- إن الأمر معقد يا عزيزتي ما زالتِ صغيرة على فهمه.
- يمكنني أن أتغاضى عن فهم انفصالك عن أمي، لكن أنا؟ ما الذي يقطع الخيط بين أب وطفلته؟

سكت قليلًا ثم قال:

- لم أكن هنا، سافرت خارج البلاد وتزوجت وحاولت الاتصال بأمك كثيرًا، لكنها دومًا ما كانت ترفض التحدث إليك.
- لقد بحثت عنك كثيرًا، بحثت عنك في أعين الرجال جميعًا. حين رحلت شعرت فجأة بأني فقدت يدًا كنت أتكئ عليها حتى لا أضل، وجدت نفسي أواجه عالمًا لا أدري عنه شيئًا، فأي سفر وأي اتصال تتحدث عنه! لقد رحلت دون وداع، دون كلمة واحدة أسكت بها طنين الانتظار.

عاد الصمت من جديد وكأن الكلمات لم تخلق لتصف مدى حزني أو لتبرر موقفه، فعاد من جديد محاولًا استعطافي:

- هل تذكرين حكاية قبل النوم؟ كنت أضمك إلى صدري وأحكي لك عن عالم خيالي يهتف سكانه باسمك ويحملون صورتك في قلادة على صدورهم.

ضحكت ضحكة مريرة:

- تلك القصة عذبتني أكثر ممّا أسعدتني يومًا، كنت أخاف منها بعد رحيلك، حاولت ألا أذكرها كنت أجد نفسي

أحلم بهؤلاء الناس ما زالوا يهتفون باسمي، لكن وجوههم كانت مخيفة، صورتي على صدورهم، كنت أبدو بها أسيرة، كنت أبحث عنك لأختبئ خلف ظهرك عن أعينهم لكنك قد عرتني أمامهم، وكأنك من سلمتني إلى أقداري قبل أن تكتب على جبيني.

رأيت الأسى يتشكل في عينيه، ربما ظن أن الاعتذار كاف لمحو أعوام، وهل هناك اعتقاد أحمق من ذلك! فقد نضجت الطفلة الصغيرة بالحزن حتى صارت غريبة عنه، ولم يعد هو سوى زائر غريب لا يحمل معه سوى ذكريات تشقيها. فمضى من حيث أتى وقد شعر فشل محاولته ألم يعرف أن ذاكرة الأطفال لا تنسى ولا تغفر.

ليس قطعة من الجنة، وليس قطعة من الجحيم لم يكن سوى صورة مصغرة من العالم الخارجي، بجماله وقبحه، بألمه وأمله. أسوار الخرسان العالية والنوافذ الحديدية تفصلنا عن العالم ماديًا، وأسوار الذكريات القاسية وقيود الخطايا وأطواق الشعور بالذنب تحجبنا عن الحاضر داخل بوتقة الماضي الموصدة بأقفال الذاكرة.

ثم تشرق الشمس لتكشف ظلام الليل الملغم بالأفكار، تحلق الطيور فوق رؤوسنا تغرد بأمل الحرية، نلتقي في جلسات العلاج فتنفتح قلوبنا المغلقة كوردة ينقذها المطر من احتراق اليأس.

عاد ليجلس على الطاولة الجانبية من جديد، ألصق جسده بالحائط وكأنه يلتمس منه القوة أو لعله يختبئ فيه، بقيت عيناه ثابتان نحو باب الكافتيريا حتى ظهرت، إن أعيننا التقت فور دخولي شعرت بقلبي ينبض بعنف وارتسمت على وجه كل منا ابتسامة يلونها الحزن، اتجهت نحوه دون تفكير لكن هاني أوقفني بندائه وهو يشاهد المشهد من طاولته:

ـ ما الأمر؟ لقد ظهر أخيرًا.

ـ اجلسي، أود أن أخبرك بشيء.

وضعت صحني فوق الطاولة وجلست في الكرسي المقابل، وأنا أحاول أن أقاوم اندفاع قلبي بنفاذ صبر.

ـ أود أن أطمئن عليه، لماذا تمنعني؟

ـ هناك عيون خفية تراقبكما إن لمحتكما معًا فلن تكون العواقب حميدة.

ـ فليفعلوا ما شاءوا ليس لدي ما أخسره.

حين نهضت أمسك بذراعي بقوة، وهو يصرخ في أذني بكلمات أشبه بالأمر:

ـ أفيقي من وهمك، ألا ترين ما قد وصلنا إليه هنا؟ صديقتك محبوسة في غرفتها غارقة في دوامة من الأدوية لا ندري عنها شيئًا، وها أنا قد حكم عليّ بالبقاء هنا إلى أجل غير مسمى، لقد تم تهديده بإخبار أهلك ونقلك من المصحة إن تواصلتم معًا بأي شكل.

جلست من جديد ونظرت إلى هاني في شك فأدرك بسرعة ما يدور برأسي:

- لست أتوهم يا ريم، أحدثك عن حقائق لا تودين رؤيتها.
- ما العمل إذًا؟ هل سنبقى تحت رحمتهم كما كنا في الخارج تحت رحمة غيرهم؟ أليس من حقنا أبدًا أن نتحكم في مصائرنا؟
- نحن دومًا الجانب الأضعف!

قالها هاني بيأس.

- كيف إذًا نتحرر من ذلك الضعف؟
- هذا ما أفكر فيه طوال الوقت.

سكت قليلًا ثم أكمل كمن تذكر شيئًا فجأة:

- اسمعي! لقد سمعت من الممرض أن الدكتور عاطف لن يأتي اليوم في المساء. فلنجتمع نحن الأربعة في حديقة المشفى، أخبري كارمن وسوف أخبر (زياد).
- أظن لدينا جلسة اليوم مع ساندي.
- لا بأس فالجلسة الساعة السادسة، وسوف ترحل ساندي بعدها. سأكون في انتظاركما الساعة التاسعة سيكون أغلب المرضى في غرفهم.

نظرت إليه متعجبة من حماسه المفاجئ ثم أجبته في استسلام:

- حسنًا، التاسعة مساءً.

الفصل الرابع

بقيت أيدينا متشابكة لبعض الوقت، يد هاني تمسك يد كارمن بقوة، ومن الجهة الأخرى يد زياد، وهو بدوره يحتضن يدي بدفء لتغلق الدائرة بيد كارمن.

بدت ملامح القلق واضحة على وجه ساندي محاولة إخفاءها:

- لم تمضِ الأسابيع الماضية كما كان ينبغي، وأتفهم جيدًا إحباط البعض منكم خاصة بعد الصدامات التي حدثت معي أو مع الدكتور عاطف، لكني أرى هذا أمرًا طبيعيًّا، فالمكان ما زال غير مألوف لكم وغدًا سيكون أفضل بلا شك.

ثم أنهت حديثها بتلك الابتسامة الباردة فلم يبادلها أي منا الابتسامة.

- ربما تلك المرة الأولى لنا في هذه الغرفة، لقد صممت كل شيء فيها بنفسي، ربما ترونها مزيدًا من الجدران فحسب، لكنها مختلفة فالصوت هنا معزول تمامًا عن الخارج، كما أن الإضاءة هنا أقل حدة عن الغرف الأخرى، قد تستغربون من الرسومات على الجدران والتي تشبه غرف الأطفال لكني سأوضح لكم الأمر، أريد في البداية أن يأخذ كل منكم كرسيه إلى أحد أركان الغرفة.

اتجه كل منا إلى ركن في الغرفة وجلس يحدق بالآخر مستفهمًا، لكن ساندي أنهت تلك الحيرة حين بدأت في الحديث:

ـ إنه الألم المكبوت بداخل كل منكم، الألم الذي لم يتحرر بعد، خُلق فيكم ونما معكم دون إدراكه، هو الدافع الخفي للإدمان، للخوف، للعنف. إن استطعنا أن نصل إلى نقطة البداية، إلى مرحلة المخاض ربما كان بإمكاننا أن نتخلص منه إلى الأبد، فلنعد إلى الماضي المخبأ في طيات الذاكرة ولنحرر ذلك الألم كطفل مشوه متشبث فينا، أريد منكم أن تصرخوا كما صرختم أول مرة، أو كما تمنيتم أن تصرخوا، فبقيت الصرخة مختنقة في حناجركم كل ذلك العمر، أريد منكم أن تبكوا الدموع الأولى والتي لم ترَ النور، وسقطت في أعماق أرواحكم كبركان خامد قد حان وقت انفجاره.

بقينا ساكنين ننظر إلى ساندي في تخوف، وساد صمت خانق لبضعة دقائق حتى حطمه زياد بصرخة قوية اخترقت الأذان كصفارة إنذار بحرب تلوح في الأفق، التفتنا جميعًا نحو زياد وقد تقوقع في وضع الجنين ويديه متشابكة خلف رأسه وهو يردد صارخًا:

ـ أرجوك توقف! لن أفعل ذلك مرة أخرى.

وكأن صرخة زياد كانت إشارة انطلاق تتالت بعدها الصرخات، سجدت كارمن على الأرض وضمت ذراعيها حول صدرها ورأسها ملتصق بالأرض وهي تبكي صارخة:

ـ لست أنا، صدقني لم أكن أنا.

بينما التصق هاني بظهره إلى الجدار وهو يضع يده على عينيه ويصرخ بصوت مرتجف:

ـ لن أخبر أبي، لم أرَ شيئًا.

اشتدت حدة الصراخ وتداخلت الأصوات، لكني بقيت في طرف الغرفة أرتجف وشعرت بثقل لساني، وكأنه يحمل جسدي فوقه حتى أحدثوا جميعًا صرخة واحدة عالية، فانهال الدمع من عيني دون توقف. وضعت ساندي يدها على أذنيها خشية أن تفقد السمع، وطلبت منهم التوقف بصوت عالٍ لم يقوَ أن يتخلل أصوات صراخهم، فاقتربت من كل منهم وأمسكت به برفق وهي تردد في أذنه:

ـ كفي.

توقف الجميع بعد دقائق وقد بدا عليهم الإرهاق، بينما ظهر الانزعاج على ملامح ساندي.

ـ مجهود رائع كبداية، شكرًا لكم.

بقينا جميعًا دون حركة في حالة من السكون والشرود، وكأننا ما زلنا في بعد آخر من الماضي.

ـ جلسة اليوم قد انتهت يمكنكم الذهاب الآن للراحة.

تثاقلت خطواتنا في الخروج، وكأننا تحت تأثير تنويم مغناطيسي، نظرت ساندي إلينا وهي تعيد إحدى الكراسي أمام كرسيها ثم نادت على هاني قبل أن يخرج فتوقف، وتوقفت خلفه كارمن:

ـ أريد التحدث معك.

نظر هاني إلى كارمن ثم تحرك بعيدًا عن الباب ليفسح لها الطريق واتجه نحو ساندي بعقل منهك لا يقوى حتى على التفكير فيما يمكن أن يكون سبب ندائها.

قد تظن أنك تعرف نفسك جيدًا، تحفظ كل شكل من قطع الدومينو المنظمة باستراتيجية محكمة.

أنا فلان صاحب شركة (س) للاستثمارات، أنا أب وزوج ومن مواليد برج الجوزاء... فهل هذا حقًّا أنا؟

أبلغ من العمر رقمًا ما وحساب بنكي رقم ما وسنوات من الخبرة رقم ما.. فهل هذا أنا؟ بضعة أرقام!

وحين هبت ريح ضعيفة من رياح الماضي أطاحت بآخر قطعة من الدومينو، فتتالت القطع في السقوط، واحدة تدفع بالأخرى حتى ما تبقى رأس قطعة منهم ينظر في اتجاه السماء.

لقد تعريت تمامًا، وحين فعلت أدركت جيدًا حجم الفراغ الذي كان يحتويني وتلك الرغبة القاتلة في الاختفاء.

اقتربت مني بعد رحيل الجميع ثم همست بصوت ناعم:

ـ كان صراخك الأعلى.

ـ هل يمكنني إشعال سيجارة؟

سألتها وأنا أفتح النافذة.

وقفت قليلًا بجوار النافذة، وأنا لا أدري إن كنت أملأ رئتي بالهواء البارد أم أحاول الاختناق بالدخان. اقتربت ساندي مني كطفلة تخشى غضب والدها إثر فعلة حمقاء.

- لقد سألتني من قبل عن حال المرضى في المشفى، لقد خرج اليوم أحد المرضى، كان مدمنًا للحشيش ويعاني من اكتئاب حاد، لكنه خرج وكأنه قد ولد من جديد ليس فقط بجسد خال من السموم، بل بأفكار أكثر إيجابية وإقبالا على الحياة.
- أنت لست لا تجدين الطب فحسب، أنت لا تجيدين الكذب أيضًا.
- لست أنا الوحيدة من أكذب، لقد كذبت عليّ أيضًا.
- عماذا تتحدثين؟
- حين سألتك عن طفولتك أخبرتني بأنها كانت طفولة عادية لا تشوبها شائبة.
- نعم لا يوجد بها ما يستحق الذكر.
- إذًا ما الذي لن تخبر والدك عنه؟

شعرت بالدماء تندفع نحو رأسي كخيوط عنكبوت تتسلل إليه لتضعه تحت قبضته.

- هاني! أعلم أنك لا تثق بي، لكن إن لم تخبرني بالحقيقة فسيطول مكوثك هنا. أنت تنكر أشياء كثيرة وتدعي أشياء أخرى. ساعدني أن أراك حتى أستطيع مساعدتك.

لوح المشهد في ذهني بوضوح.

ـ كان ضخم البنية ذا بشرة سمراء ووجه عريض، تبرز منه عظام جبهته، رأيت عينيه تلمع في ضوء الغرفة الخافت، وهو ينظر إليّ نظرة وعيد، وكأنه شبح مخيف أو هكذا تخيلته، رأيت أمي أسفل منه بجسدها الضئيل العاري وهي مستسلمة لحركة جسده العنيفة، وتتأوه من الألم أو هكذا تخيلت أيضًا، ركضت نحو غرفتي وقد بللت سروالي دون أن أشعر، أيقظت أختي والتي كانت تكبرني بسبعة أعوام، وفي براءة طفل لم يتم عامه السادس أخبرتها أن هناك رجل يعذب أمنا في غرفتها، فلم تستجب لي في البداية ثم بعد إلحاح مني اتجهنا نحو غرفتها فوجدناها وحدها، تركتنا أختي وهي تنفخ في ضجر، بينما أمسكت أمي بكتفي وهي ترجوني وتبكي:

ـ لا تخبر أباك.

فما كان ردي سوى:

ـ لن أخبر أبي، لم أرَ شيئًا.

سألتني ساندي

ـ ماذا عن أبيك؟ كيف تذكره؟

أشعل السيجارة الثانية.

ـ بدلة سوداء باهظة، سيجار كوبي، حقيبة سفر لا تفرغ أبدًا، ألعاب من دول مختلفة لطالما أبهرت أصدقائي بينما

لم يبهرني أكثر من وجود أب في حياتهم. كنت أتساءل في كل يوم إن كانت ضريبة النجاح باهظة إلى ذلك الحد.

ـ لقد مضى عمر يا هاني، أخرج الماضي منك فلم تعد أنت هذا الطفل ولم يعد لوالديك أثر سوى صور أبيض وأسود.

ـ إن كان ذلك بإمكاني ما كنت هنا الآن.

ـ بل بإمكانك، هذا المكان ليس سوى محطة في حياتك فدع الماضي يحترق فيها وامضِ نحو محطة جديدة، ما زال هناك الكثير من الجمال في العالم لتراه.

سرحت في عينيها وابتسمت لها واضعًا قناعًا من اللامبالاة على وجهي:

ـ أشكرك، هذا ما أنوي فعله.

في التاسعة مساءً اجتمعنا نحن الأربعة في حديقة المشفى، كان البدر مكتملًا يلقي بضوء كافٍ ليرى كل منا وجه الآخر.

انتظرنا في حالة من التعب أن يبدأ هاني بحديثه وينهيه سريعًا، حتى يذهب كل منا إلى غرفته بعد تلك الجلسة، والتي لا أعرف أي نوع من العلاج هذا الذي يعيد إليك الضربة الأولى لتُشفى!

هاني كان أكثرنا تأثرًا فقد بدت ملامحه في ذلك الضوء الخافت كمصاصي دماء، عينان تكسوهما الحمرة ووجهه شديد الشحوب وسيجارة تشعل الأخرى قبل أن تنطفئ وقبل أن يبدأ أخيرًا في الكلام.

ـ لن أطيل عليكم الانتظار، لكن كل ما أرجوه منكم هو التركيز جيدًا فيما سأقوله، لقد حان الوقت يا أصدقائي كي نتحرر، فمن معي؟

ـ نتحرر من ماذا؟

سألت ريم.

ـ من قيد هذا العالم يا صغيرتي.

ـ كفاك ألغاز يا هاني، فكلنا متعبون. ما الأمر؟

سألته بنفاذ صبر.

ـ الأمر لا بد أن يصبح بأيدينا، وإن لم نختر أن نكون هنا فمن حقنا اختيار الخروج.

ارتبكت كارمن كثيرًا قبل أن تسأله:

ـ لكن إلى أين يا هاني؟ لا أحد منا يملك حياة. لسنا أحرارًا، ولن يتقبلنا أحد في الخارج! أنا عن نفسي سأنتظر هنا حتى موعد خروجي.

ضحك هاني ساخرًا:

ـ موعد خروجك! لِمَ أظنك حمقاء إلى تلك الدرجة يا كارمن! لقد دفنتِ هنا حتى تعلن وفاتك الحقيقية. أنتِ ميتة منذ زمن وأدوية عاطف ستلغي ما تبقى من عقلك. لا تظني أن بإمكانك خداعه كثيرًا سيعرف أمرك ويختار لكِ عقابًا جديدًا.

نظرت إليّ ريم وشعرت للحظة أني قد لا أراها من جديد حتى اختنقت الكلمات في صدري، وألم خفي قد اعتصرني حين تخيلت أني قد أعود إلى منزل أبي، فأعلنت رفضي القاطع لفكرته ولا أدري لماذا أثار رفضي غضبه حتى تحول الحديث بيننا إلى ما يشبه الشجار.

فالتفت هاني إليّ في حدة:

- أراك أكثرهم حماقة! ماذا تنتظر إذًا أن يرضى عنك أبوك فيخرجك من هنا؟ هل تود أن يضيع شبابك في هذا السجن ثم تخرج لتبحث عن فرصة عمل (شاب منطوٍ لديه خبرة عدة سنوات؛ حيث كان مريضًا في مشفى للأمراض النفسية) لا بد حينها أن تتصارع الشركات لتوظيفك أو ربما تفكر في أن وجودك هنا سيبقيك قريبًا من ريم! هل تظن عاطف والدك الخيالي الذي سيبارك حبكما، ويتمنى لكما السعادة من قلبه! هذا الرجل ليس له قلب يا عزيزي، فبإمكانه إعماؤك تمامًا عن ريم حتى وإن كان بينكما متر واحد.
- لا أظن أن هناك أحمق الآن سواك! فهل تفكر أنت في مصلحة كل منا أم أن غضبك من زوجتك يعميك ورغبتك في الانتقام منها هي ما تحركك؟ هل تريد تحريرنا أم أنك اعتدت أن تدير كل شيء، وأن من يرفض طاعتك يقع في نصاب الشك. دعنا وشأننا فلا أظنك تختلف كثيرًا عن

عاطف أو حتى عن أبي. كلكم تظنون بأن العالم قد خلق من أجلكم أنتم فحسب.

انفض الجمع واختفى كل منا تحت وسادته، لكن هاني بقي كما هو دون حراك. لا أدري حتى متى! ربما حتى اختفى البدر تمامًا من الأفق.

ظلت كلمات هاني وزياد تدور في رأسي دون انقطاع بينما كانت ريم تنعم بنوم عميق.

فكرت كثيرًا إن كان هذا العالم حقًّا بسيطًا وأني وحدي من أغرق في ذلك العمق! وهل من الممكن إن خرجت من هنا أن أعيد ترتيب حياتي، وقد اعتدت دومًا السير خلف القطيع.

كنت أطوف وسط أفكاري ما بين اليقظة والنوم حتى شعرت بيد فوق ذراعي وأنفاس قريبة من رأسي، نظرت خلفي فرأيت وجهًا هزيلًا لم أتمكن من رؤية تفاصيله في الظلام، كان من الممكن أن تكون ريم لو لم أسمع صوت شخيرها من الجهة الأخرى. وددت أن أصرخ لكن صوتي قد اختفى.

أغمضت عيني لعلها تكون إحدى الهلاوس بعد توقفي عن تناول الدواء، لكني وجدت عيني مغمضة بالفعل!

سمعت صوت نحيبها ذلك الصوت من جديد.

ـ ماريا! هذا أنتِ؟

ـ أفتقدك يا أمي فهل عانقتني؟

شعرت بجسدها يرتجف بين ذراعي بدرجة لا تحمل الشك بأني لست أحلم. إنها هنا أتحسس شعرها أشعر بسخونة دموعها على كتفي.

جاء صوتها خافتًا أشبه بهمس مختنق بالبكاء.

ـ كفاك جلد لذاتك، إني سامحتك يا أمي وأدعو لك بالشفاء في كل ليلة.

امتزج نشيج دموعنا كلحن جنائزي حتى شعرت بضوء مسلط على عيني، بعد ثوان تمكنت من الرؤية، كان باب الغرفة مفتوحًا، وضوء خارجي أحجب جسد عريض جزءًا منه، كان يقف دون حراك ويده على مقبض الباب، إنه هنا من جديد الملاك الأسود، وكأنه قد خطف ماريا من بين ذراعي.

شعرت برأسي يدور، هل وقعت في شرك من الأحلام المتداخلة! هل فقدت القدرة على تمييز الواقع من الخيال؟

بدأ الملاك يتحرك في الغرفة، وأنا أراقب حركته في صمت وخوف حتى أضاءت المصباح أخيرًا واتجهت نحو ريم.

ـ استيقظي يا ريم وجهزي حقيبتك الآن، سأنتظرك في الخارج.

قالتها بصوت أكثر حدة من أي وقت مضى فخرج صوتي أخيرًا أسألها، بينما ما زالت ريم تحاول فتح عينيها:

ـ إلى أين؟

ـ هنالك غرفة جاهزة في الدور الثاني ستُنقل لها.

ـ لكن لماذا؟

تجاهلت سؤالي وأغلقت الباب بعنف خلفها وانتظرت خلفه.

نظرت إليّ ريم وقد كانت في حالة غريبة من الاستسلام بينما أستشيط غضبًا.

ـ كم الساعة الآن؟

سألتني وهي تحاول النهوض، نظرت نحو النافذة، كان الليل يبدو في أعمقه، لم يكن هناك أثر لخيط من الفجر أو لأي صوت في الخارج.

ـ لا أدري ربما الثانية أو الثالثة صباحًا. هل ستذهبين معها؟

ـ وهل لدي اختيار؟

ـ لكن لماذا؟

سألتها في حزن.

ـ إن لم تحمل الممرضة إجابة، فكيف لي أن أعرف؟

كنت أشعر بالدمع مختنقًا في صدرها، تتحرك في الغرفة وتجهز حقيبتها دون كلمة واحدة.

اتجهت نحو الباب وكأنها تقصد ألا تلتقي أعيننا، اختفت وكأنها حلم آخر قد انتهى.

مضى يومان كل في عالمه الأجوف يلتزم الصمت، لم يتحدث أحد عن خطة هاني على الرغم من أني على يقين بأننا جميعًا ما زلنا نتخبط في كلماته كل دقيقة، أما هو فلم يخرج من غرفته من وقتها. تخيلت أنه ربما يحاول خلق نفق ليصل به إلى العالم في الخارج بالحفر في تلك الجدران، والتي لم أجرؤ يومًا حتى على الطرق عليها.

انتظرت الجلسة الجماعية بفارغ الصبر، ليس حبًّا في التعري، لكن صوت ريم وهي تتحدث عن أوجاعها كان يمثل لي ما تبقى من العالم في ذلك الوقت. فقط الإنصات إلى صوتها يكفي بأن يحمل لك الحياة في تناغمه.

لكن يبدو أن أبسط الأحلام قد حرمت علينا، وأن الهروب من الحاضر في ذلك المكان جرم بشتى أشكاله.

حين اتجهت نحو عيادة ساندي في موعد الجلسة، لم يكن هناك غيرها تنتظرني خلف مكتبها بابتسامة خبيثة، قتلت الجمال في وجهها والذي لم أره يومًا جميلًا كالآخرين.

ـ أين الجميع؟

سألتها.

ـ أليس ذلك أفضل؟

ـ عمّاذا تتحدثين؟ من المفترض أن اليوم موعد الجلسة الجماعية!

- لقد تم إلغاء الجلسات الجماعية لأجل غير مسمى، لقد اتخذ عاطف ذلك القرار من أجل مصلحتكم جميعًا، فقد اتضح لنا أن قربكم من بعض في الفترة الأخيرة قد أثر عليكم بالسلب لذلك قررنا تغيير خطة العلاج.
- خطة جديدة! تتعاملون معنا كفئران تجارب.
- الضحية يا زياد يبقى منبطحًا أرضًا، لا يقبل يد العون ظنًّا منه بأن العالم كله ضده، لا شك بأنك شخص حساس وقد ظلمت كثيرًا من معاملة والدك، لكن إن بقيت راضيًا بدور الضحية فلا خطة علاجية تنجيك. وحدك من يجب أن يأخذ قرار إن كنت تريد تجاوز الماضي والبدء من جديد.
- وما شأن الجلسات الجماعية في ذلك؟
- أنت لا تعنيك المجموعة، كل ما يعنيك هو ريم، وليس من الصواب أن تتشبث الآن في عاطفة قد تزيد حالتك سوءًا إن فشلت.
- من منا الآن ينظر إلى الأمور من زاوية واحدة؟ كل ما توقعتيه هو الفشل.
- لأني أرى الأمور من الواقع، لن يخرجك من هنا سوى نفسك، لا ريم ولا حتى أنا.

لا شك بأني لا أحيا على نفس الأرض مع ساندي، كل منا في عالم موازٍ للآخر، لن نلتقي أبدًا.

صعدت خلفها أتحرك في مساحة ظلها، وسط سكون صاخب وكأني أسمع صوت أحلام المرضى المختنق خلف أبواب الغرف.

الطابق الثاني كان أشبه بغرف العزل للمسجونين الأكثر إجرامًا، ولم أكترث أن أسأل أي ذنب قد فعلت، ففي النهاية كلها غرف مشابهة تمامًا لا يمكنك الانتماء لأي منها، فلا شيء فيها يمكنه أن يحمل ملامحك.

مزيد من السكون قطعه صوت الباب وهي تفتحه تدعوني الدخول.

ـ احترسي من الجدران فالطلاء ما زال رطبًا.

قالتها بجمود ورحلت.

كيف يمكن أن تجف عيوننا حتى ما عاد الألم يثير الدموع فيها، فوق سريري الجديد بقيت عيوني مجمدة وجسدي مجمدًا، أحتاج إلى مكان أكثر دفئًا بعيدًا عن هذا العالم، ليس في الخارج كما اقترح هاني، ليس هنا كما يظن زياد.

هنالك مكان آخر أبحث عنه، مكان ترفرف فيه أجنحة روحي المتكسرة، مكان غير مرئي.

لم أتخيل كم الفراغ الذي صنعته ريم حين رحلت، حتى أني لم أقوَ على إغماض عيني وكأنها سحبت النوم خلف عجلات حقيبتها.

انتظرت الشمس كثيرًا خلف نافذتي وكأن ذلك الليل لا ينتهي أبدًا، كنت أبحث عن ماريا في ريم رغم فارق السن بينهما. اختفي كل منهما فجأة في جوف الليل، وشعرت بالفجوة بداخلي تزداد عمقًا.

صارعت الأفكار بصعوبة في رأسي، تلك الحاجة الملحة لألقي بجسدي فوق جسد هاني، بقيت الصور تتداخل وهو يتحسسني وهو يقبلني وهو يضاجعني. تخيلت التقوقع في حضنه كجنين في رحم أمه، يربطنا حبل سري واحد يمرر الحياة من جسده إلى جسدي!

ذلك الجنون لا ينتهي، تلك الرغبة لا تتبدد!

حين أشرقت الشمس أخيرًا كان قلبي ما زال ينبض، أم أنه ما زال ينزف. أسرعت نحو المطعم برأس مثقل لا أدري إن كنت أبحث عن ريم أم عن هاني الآن.

توقفت عند المدخل حين وجدت تلك اللافتة!

«من أجل سلامتكم برجاء عدم التجمع داخل المطعم أو في الحديقة».

وفي النهاية توقيع إدارة المشفى! ما معنى ذلك على أي حال؟ ومن المقصود بتلك الرسالة سوانا؟ لكن لماذا؟ هل عرف أحدهم بخطة هاني! هل سمع أحد اجتماعنا! ربما لذلك نقلت ريم إلى الطابق الثاني.

في الجوار كان المطعم شبه فارغ، أحد المرضى كان رجلًا في منتصف الأربعينات يجلس وحيدًا على طاولة في المنتصف يمسك بقطعة خبز تأبى أن تصل إلى فمه.

وفي الطاولة الأخيرة رأيتها هناك تجلس مع زياد وكل منهم يبدو صامتًا ينظر نحو النافذة، تخيلت للحظة لو أن المكان والزمان مختلفان، ربما لكان كل منهم يجلس في مقهى ما يحتسي كوب قهوة قبل الذهاب إلى العمل، فتلتقي أعينهم ويشعران بانتماء غريب فيدعوها إلى طاولته، أو ربما هما زملاء في عمل واحد يتبادلان نظرات الحب والنكات وسط يوم طويل ويمضي كل منهما إلى منزله يحلم بالآخر.

لكنهما هنا في زي أبيض مجعد، ووجه ذابل وشعر غير منمق، لا أحد منهم يجرؤ على الابتسام وكأنهم في حداد على أحلام فقدوها ذات نهار وهم صغار ولم تعد يومًا.

أسرعت إليهم كطفلة ضائعة وجدت عائلتها أخيرًا، ولا بد أن ليلة كل منهم لم تختلف كثيرًا عن ليلتي، فعلامات السهر كانت واضحة على وجوهنا الشاحبة.

ـ هل هناك وباء ما؟ لماذا وضعت تلك اللافتة؟

سألتهما وأنا أجلس بجوار ريم وزياد في الكرسي الأمامي.

ـ أي لافتة؟

سألت ريم، ويبدو أنه لم يكترث لها أي منهما أو التحدث عنها.

شرح لها زياد المكتوب عليها، وأخبرنا أيضًا بإلغاء الجلسات الجماعية فكانت صدمة لنا أثبتت ظني منذ قليل، بأن تلك اللافتة فقط من أجلنا.

ـ أين هاني؟ هل تحدث معه أحد عمّا يجري؟

سألت زياد.

ـ ما زال في غرفته، ولم يخرج، لا أظن أن لهذا داعيًا على أي حال، فأنا أعرف رده جيدًا «لقد أخبرتكم أن هذا ما سيحدث».

ـ ربما هو محق بالفعل. نحن لم نستمع إليه في تلك الليلة، وربما عاطف يأبى أن نتحرر من هنا أو أن نفكر في شؤوننا كشخص طبيعي.

بقيت ريم صامتة لا تود الخوض في أي نقاش.

ـ هل أنتِ بخير؟

سألتها.

ـ وماذا تعني بخير على أي حال؟

سكت قليلًا وأنا أفكر ما معنى الكلمة! ربما حرفيًّا فهي تعني أنها بصحة جيدة، أو أن لا شيء يزعجها، فشعرت بحماقة السؤال ولم أجب، وبقي الصمت من جديد يحيط بنا دون أن يجرؤ أحد على كسره بأي كلمة.

رحلت عنهما وبداخلي غضب شديد لا أفهم مصدره، ربما ذلك الصمت القاتل بيننا أو ربما لأن ريم لم تأتِ على ذكر افتقادي ليلة أمس، أو ربما لأن هاني لم يكن هناك.

وجدت غضبي يحركني دون شعور نحو مكتب عاطف. لا أذكر إن كنت طرقت الباب قبل أن أدخل لكني الآن أمامه وجهًا لوجه.

ـ ما الأمر؟

سألني بلا مبالاة وهو يوقع بعض الأوراق.

ـ لماذا؟

ـ ما سؤالك؟

سألني من جديد، وهو يفتعل أنه لا يدري عمّاذا أتحدث.

ـ لماذا تجد متعتك فيما يزعجنا؟

ضحك عاطف ضحكة مفتعلة مستفزة تنم عن كيد حقيقي ثم سألني:

ـ لدي الكثير يشغلني عن إزعاجكم، كما أنني أتعجب أيضًا لماذا قد تستمتع امرأة بممارسة الجنس مع رجل لا يطيق النظر إلى وجهها.

ـ أنت أحقر بكثير مما كنت أظن.

تبدلت ملامحه من السخرية إلى حقد واضح.

ـ أرى أنكِ قد اعتدت جرعات الدواء الأخيرة، ربما سنحتاج إلى جرعات إضافية أو إلى نوع آخر من العلاج.

كنت كمن أشعل فتيلًا في رأسي، فقدت السيطرة تمامًا على نفسي فأمسكت بالأوراق أمامه ومزقتها ثم ألقيت بها على وجهه.

فجأة وجدته خلفي وكأنه قفز من فوق مكتبه في غمضة عين، أمسك بشعري بقوة حتى رجوته أن يتوقف، كنت أشعر بألم شديد وكأنه ينتزعه من رأسي.

همس في أذني بصوت مخيف:

ـ نحن هنا لعلاج المرضي. أما أنتِ فكان من الأفضل وضعك في سجن مع العاهرات بتهمة الدعارة فلا تظني نفسك أبدًا ضحية.

قبل أن أنطق دفعني بقوة نحو الباب لكني تمكنت من أن أمسك بالمقبض فلم أسقط.

عاد إلى مكتبه في هدوء وكأن شيئًا لم يكن، وسيطر عليّ شعور غريب في تلك اللحظة لأول مرة تمنيت أن أراه ميتًا.

أشرقت شمس يوم جديد، يوم لا أستطيع أن أذكر أمسه، تطل الشمس في حذر من خلف السحب، وهواء بارد يحرك الستار خلف النافذة. لقد انتهي الخريف (فصل الذكريات) كما تقول ساندي، وبدأ فصل جديد فصل أشد قسوة. في الشتاء فقط ندرك كم نحن وحيدون وألا غطاء بإمكانه أن يمنحنا الدفء مهما كانت قوته في حجب البرد عن أجسادنا.

دوار شديد في رأسي حتى أني لم أقوَ على رفعه من على الوسادة.

ألم في عضلات جسدي أشبه بوخز من مئات الإبر، بدأت أتذكر الآن أحلم كان ذلك أم حقيقة؟ هل كان أمس أم أن وقتًا طويلًا قد مضى؟

هذيان حقيقي يعبث بذاكرتي!

نهضت بصعوبة من على السرير واتجهت نحو المكتب الصغير في طرف الغرفة. أمسكت بورقة وقلم لأكتب إلى زياد لعلي أستطيع التذكر، لم أعلم من أين أبدأ لكن رغبتي الشديدة للتحدث إليه ما كانت تحركني.

«عزيزي زياد..

هل تخيلت يومًا أن يكون ذلك العالم مجرد حلم؟ وأن أجسادنا ما هي إلا ظلال تتحرك فيه. هل اختلط عليك الأمر حتى ما عدت تدرك إن كنت حقًّا حي أم أنك قد مت منذ زمن بعيد وكل ما نحن فيه أشبه بذكرى؟

أعلم أن كلامي قد يخيفك، لكن ما أحاول تذكره الآن قد يخيفك أكثر!

قد نكون وقعنا بالفعل في الحب، ولكن ماذا إن لم نكن هنا. إن كنا أناسًا عاديين بعقول متزنة، هل كنت ستقع في حبي؟

لقد شوهت تلك الندوب قلبي أكثر ما شوهت جسدي، ولكنه رغم ذلك قد تعلق بك تعلقًا مرضيًّا، تضحكني الكلمة الأخيرة فحتى الحب قد يكون مرضًا ما!

اعتدت أن أكتب الرسائل لوالدي وألا يقرأها، لكن الغريب الآن أن أكتب إليك رغم أن ما يفصلنا عن بعض لا يتعدى بضعة جدران.

صدقني إن قلت بأني لست على يقين أن ما حدث قد حدث بالفعل، لكني الآن بدأت أتذكر...

سمعت خطوات أقدامها بوضوح فهنا في الطابق الثاني يمكنك أن تسمع خطوات نملة. توقعت أنه ميعاد الجرعة المسائية من الأدوية، لكنها حين فتحت الباب رأيت وجهها أكثر جمودًا، تذكرت كارمن في وصفها لها ولطالما شعرت بداخلي أن كارمن تبالغ قليلًا، لكن اليوم كانت حقًّا ملاكًا أسود.

- هيا بنا لديك جلسة علاج.
- الآن؟!
- نعم. الدكتور عاطف في انتظارك.

مضيت خلفها أستمع إلى وقع أقدامها يزداد صخبًا لا صوت سواه، وكأننا وحدنا في هذا المكان، كان الممر مظلمًا، وضوء خافت أسفل الدرج.

نزلنا ثلاثة طوابق على ما أظن، وسألتها عن مكان الجلسة، فقد مررنا بالفعل بالعيادة لكنها لم تجبني.

دخلنا في ممر منحنٍ بعد صف العيادات والمكاتب في الطابق الأرضي لم أره من قبل.

لا أذكر تفاصيله، ربما بسبب الظلام ولا يمكنني أن أصف طوله لكني شعرت أني مشيت فيه طويلًا قبل أن نصل.

«غرفة العلاج بالصدمات الكهربائية»، كانت اللافتة على الغرفة الوحيدة في نهاية الممر وفوقها مصباح ضعيف لا تتعدى إنارته طرف اللافتة، شعرت بخوف يتسلل إليّ حاولت أن أعود وأركض لكنها كمن قرأ حركة جسدي فأمسكت بذراعي بعنف وفتحت الباب.

غرفة صغيرة أشبه بباقي الغرف في المشفى: سريران كأسرة الفحص، وفي المنتصف طاولة عليها جهازان، كل منهما مستطيل بشاشة صغيرة، موصل بحاسوب والعديد من الأسلاك.

وجدت كارمن على إحدى الأسرة مغطاة بغطاء سرير شفاف، حتى أني رأيت جسدها شبه عارٍ يرتعش أسفله، وكلًّا من معصمها وقدمها مقيدين في السرير. نظرت إليّ فور دخولي والدموع تغرق وجهها، بجوارها يقف عاطف يعمل على الجهاز، وممرض أظنه في منتصف العشرينيات ذا بشرة سمراء وأنف بارز، وكأنه خارج وجهه، كانت المرة الأولى

التي أراه فيها ومن عبوس وجهه يمكن تصنيفه من الملائكة السوداء.

- ما الأمر؟

سألت بصوت عالٍ، وما زالت يد الممرضة تمسك بذراعي.

- حضري المريضة للجلسة.

وجه عاطف كلامه إليها متجاهلًا سؤالي.

بعد دقائق من الاستسلام كنت في نفس وضع كارمن، مقيدة بملابسي الداخلية وملاءة شفافة.

بدأ الممرض في توصيل الأسلاك بلاصقات معدنية في رأس كارمن ثم رأسي.

- أليس من المفترض أن يكون هناك مخدر؟

سألت عاطف بيأس.

ضحك ضحكته المستفزة ثم أشاح الغطاء عني:

- هل ذلك الجسد الضئيل المشوه بالندوب يحتاج إلى مخدر؟ كنت أظنك تستمتعين بالألم!

- لكن لماذا؟ ألا تكفي الأدوية؟ أرجوك.

- بعض حالات الفصام تحتاج إلى ذلك النوع من العلاج.

- لكني لست مصابة بالفصام!

ضحك من جديد.

- برجاء الاحتفاظ برأيك الطبي لنفسك.

كانت كارمن قد توقفت عن البكاء وتحاول بصعوبة التحرر من القيود، التفت عاطف إليها وصرخ فيها كي تتوقف، فبصقت في وجهه وازداد فزعي في تلك اللحظة كثيرًا حين مسح عاطف وجهه بكف يديه ثم صفعها بقوة على خدها.

ثم ضغط على زر في الجهاز....

الفصل الخامس

«ليس الألم ما أذكره الآن، ولا صرخات كارمن التي كانت تغرسها في قلبي، لكنه شعور غريب أن ذلك الجسد لم يعد جسدي، لم تكن عضلات جسدي من تنتفض. لم أكن أنا يا زياد! كانت روحي بعيدة كل البعد عني. فهل فهمت سؤالي عن إن كنا نعيش حلمًا؟».

طويت رسالة ريم ووضعتها بجواري فوق الطاولة، كانت قد رحلت بعد أن وضعتها دون أن تتناول الطعام أو تتحدث معي بكلمة واحدة.

صار الهواء خانقًا هنا، كم كنت أحمق حين اعتقدت أن ذلك المكان سيبقينا سويًّا، أني أفقدها أكثر في كل يوم حتى وإن بقي جسدها يتحرك في المكان من حولي.

فكما ذكرت (لم يكن جسدها من يتحرك).

في المساء اتجهت نحو غرفة هاني، كان قد مضى عدة أيام على آخر لقاء بيننا لم أعرف عنه شيئًا حتى أني ظننت بأنه ربما قد رحل.

جالس على نفس الكرسي بجوار النافذة المغلقة، وجهه قد زاد شحوبًا ولحيته صارت أكثف وكأن عامًا قد مضى. لم أحتمل رائحة الغرفة، وكأن دخان السجائر هو الهواء الوحيد الذي كان يستنشقه ويزفره.

ـ كنت أظن أن الهواء خانق في الخارج لكني غيرت رأيي حين دخلت هنا.

اقتربت منه وأنا أقاوم رائحة المزيد من دخان السجائر، عرق، مبيد ما للناموس!

فتحت النافذة ووقفت بجوارها.

ـ كنت أنتظر قدومك، لم أتوقع بتلك السرعة فقط حين يحل الأذى بالصغيرة.

اعتذرت له عن أسلوبي البغيض في آخر مرة وأخبرته أني قد غيرت رأيي بخصوص خطته.

ـ ماذا عن باقي المجموعة، هل تحدثت إلى كارمن وريم؟

ـ لا، لكن لا أظن أن أيًّا منهما سترفض خاصة الآن.

اتسعت عيناه وشعرت وكأن الدم يضخ من جديد نحو وجهه، وكأن الأمل في النجاة قد أعاده للحياة من جديد.

تحدثنا كثيرًا في تلك الليلة، لم أشعر بالوقت ونحن بصدد التفكير في كل حركة من تحركاتنا. من سيفعل ماذا متى وكيف حتى طل نهار يوم جديد كنا قد انتهينا، ولم يبق سوى إخبار ريم وكارمن بما استقررنا عليه.

البدايات من اختيارهم
والنهايات من اختيارنا!

ليلة أطل فيها الشتاء بقسوته، التزم الكل بغرفته، يخشى صوت الرعد والسماء الممطرة، كنت قد أرسلت رسالتين إلى ريم وكارمن عن طريق أحد الممرضين مقابل علبة سجائر، شرحت لكل منهما ما عليها فعله في تلك الليلة.

وبالرغم من ذلك الطقس السيئ لم أتوقع أن يتغير شيء في خطتنا.

العاشرة مساءً كارمن في اتجاهها نحو عيادة عاطف تقنع الممرضة بأنها في حاجة لاستشارة ضرورية، وبعد أخذ الإذن منه ترسم كارمن وجهًا لطيفًا غير متوقع، تحاول إغراءه ويرفض في البداية، ثم تستميله إليها في ضعف جارية تود تعذيبها جسديًّا فيستسلم في الأخير.

اتجهت بدوري إلى عيادته وكنت على علم بأن الممرض المناوب هو نفسه الذي وصل رسالتي، فلم يحتج الأمر أكثر من علبة سجائر أخرى للتحرك نحو الطابق الأرضي.

حين اقتحمت العيادة كانت مؤخرة عاطف أول ما رأيت، ممسكًا بشعر كارمن ويجذبها نحوه بقوة وهو يضاجعها من الخلف، التفت إليّ فور دخولي فقمت بلكمه على وجهه، أسرعت كارمن بالتقاط فتاحة الأظرف وهو يحاول أن يهاجمني فقامت بطعنه في رقبته من الخلف، سقط على الأرض وهو ممسك برقبته محاولًا إيقاف الدم المندفع بقوة لكنه لم يتماسك طويلًا ولفظ أنفاسه الأخيرة في ثوانٍ.

انقطع التيار الكهربائي في توقيت مثالي، وكأننا جميعًا نعمل في تناغم غريب، طلبت من كارمن ارتداء ملابسها بسرعة على ضوء القداحة حتى نمضي قبل أن يأتي أحد لإخبار عاطف بأمر الكهرباء.

كانت كارمن أشبه بإنسان آلي حقيقي، تفعل كل ما يطلب منها دون أي ردة فعل أو تعليق، لكن ما لم يكن في الحسبان هو ما حدث بعد ذلك!

ما يحركنا أغلب الوقت هو الشعور، وربما سبب وجودنا في هذا المكان، يقال إن الشعور ناتج عن فكرة، وإن غيرت مسار أفكارك يمكنك تغيير ما تشعر به، ولكني يجب أن أعترف بأني فشلت أو أني لم أحاول بالفعل.

بعد جلسات العلاج بالصدمات الكهربائية فقدت السيطرة تمامًا على أفكاري، فقط الشعور هو ما تبقى مني، وللأسف كان الشعور المسيطر هو الغضب!

في اللحظة التي اطلعت فيها على خطة هاني كنت أشعر بالغضب يتغذى عليّ، يندفع في جسدي كبركان لا يهدأ وانتظرت ذلك اليوم دون تفكير في أي شيء، فقط الشعور بالغضب ما كان يحركني.

أنا التي شعرت بالذنب تجاه كل شيء وأي شيء، ولم أتخيل يومًا أن أقتل ذبابة، طعنت عاطف دون أن أهتز، ولولا صراخ هاني كي أسرع لكنت طعنته ألف مرة قبل أن أرحل.

عندما حل الظلام شعر كل منا بالارتياح، فكل شيء كان مخططًا له من قبل، لكن الفوضى التي حدثت لم تكن ضمن خطتنا.

صوت انفجار شديد تلاه صراخ ووقع أقدام تركض في كل مكان، حين فتحنا باب العيادة كان صوت صفارات الحريق في كل مكان، والكل يجري نحو الدرج إلى خارج المبني، نظرت إلى هاني في فزع أسأله عمّا يحدث حاول تهدئتي وأخبرني أنه مثلي لا يعرف.

تداخلت الأصوات، وأضواء الكشافات اليدوية، بقينا بجوار الباب نراقب المشهد وكل منا في حالة من الشلل. أمسكت بذراع هاني كطفلة صغيرة ترتعش من الخوف حتى أوقف أحد الممرضين ليسأله عمّا يحدث.

ـ أحد المرضى كان يعبث بصندوق الكهرباء، فحدث ماس كهربائي إثر تساقط الأمطار على الأسلاك المكشوفة. لا تقلقوا لقد اتصلنا بالمطافئ فقط أبقوا في مكان آمن.

ـ وأين هو الآن؟

سأل هاني وهو يحاول أن يلحق بالممرض الذي كان يركض بعيدًا عنا.

ـ رحمه الله.

انتفض قلبي وأنا لا أصدق ما سمعت، لكن هاني جذبني بسرعة من يدي:

ـ هيا بنا بسرعة لنهرب، لم تكن تلك خطتنا لكن ما حدث قد حدث.

- لكن زياد يا هاني...
- سمعتِ الممرض هيا لا وقت.
- وريم.

توقف هاني عن شد يدي ثم قال:

- نحن على بعد خطوات من البوابة، وأكيد سنراها في الخارج حيث يركض الجميع لا يمكن أن تكون ما زلت في غرفتها.

سحبت يدي من يده وأسرعت نحو الطابق الثاني، فركض خلفي هاني يناديني بينما كان الجميع يركض في عكس اتجاهي.

الرسالة الأخيرة...

«انتظرت من الجميع أن يحبني ونسيت أن أحب نفسي.. وحين يحل الظلام ستتحرر تلك الروح البيضاء من الجسد الأسود ويعود السلام بعيدًا عن عالم أضنته الحروب حد التمتع بالألم».

دعينا نمضي الآن يا عزيزتي، ودعي النيران تلتهم الظلم والماضي ولنمضِ نحو المجهول بخطوات ثابتة، سنبقى في ذلك الزي الأبيض لكَننا لن نكف عن الآثام ما دمنا أحياء، فقط ثقل الذنوب ما يزن..

المحتويات

مفتتح	٧
الفصل الأول	٩
الفصل الثاني	٣٣
الفصل الثالث	٦٩
الفصل الرابع	١٠٥
الفصل الخامس	١٣١

كاريزما
للنشر والتوزيع